

الإسلام ينادي بالبشر

هذا الرسول

إلى الله عليه وسلم

خاله خاله



المخطوطات
النسخة المودعة

الإسلام ينادي بالبشر

إلى هذا الرسول
صلى الله عليه وسلم

خاله وخاله

الإسلام ينادى بالبشر

إلى هذا الرسول
صلى الله عليه وسلم



الطبعة الأولى

ذو القعدة ١٤١٦ هـ - أبريل ١٩٩٦ م
القاهرة

الغلاف من تصميم : محمد أبو طالب
تم الجمع بوحدة الكمبيوتر
بإشراف : عصام يس
المراجعة اللغوية : إبراهيم الفارسي

جميع الحقوق محفوظة للناسخ

دار المقطم للنشر والتوزيع

٥٠ شارع الشيخ ربحان - عابدين
القاهرة

ص.ب : ٥٨ باب اللوق - ١١٥١٣

ت : ٣٥٥٨٢١٥ - فاكس : ٣٥٤٦١٠٩

المطبعة : فيكتور كيرلس

الفهرس

الموضوع	الصفحة
الفهرس	٥
قائمة كتب المؤلف	٦
مقدمة الناشر	٧
بين يدي الكتاب	٩
الفصل الأول: بشر مثلكم	٢٤
الفصل الثاني: رجل كل العصور	٤٤
الفصل الثالث: البشريات بين يديه	٦٢
الفصل الرابع: الرجل الكامن في الطفل	٨٤
الفصل الخامس: الرسول الكامن في الرجل	٩٩
الفصل السادس: وجاء يوم الشروق	١١٣
الفصل السابع: أبشّر يهدوننا ؟	١٣٦
الفصل الثامن: ولماذا هو بالذات ؟	١٥١
الفصل التاسع: فلينهض الإنسان	١٥٧

للمؤلف

- ١ - من هنا . . نبدأ.
- ٢ - مواطنون.. لا رعايا.
- ٣ - الديمقراطية ، أبداً.
- ٤ - الدين للشعب.
- ٥ - هذا . . أو الطوفان.
- ٦ - لكى لا تخرثوا فى البحر.
- ٧ - لله ، والحرية (ثلاثة أجزاء).
- ٨ - معاً على الطريق.. محمد والمسيح.
- ٩ - إنه الإنسان.
- ١٠ - أفكار فى القمة.
- ١١ - نحن البشر.
- ١٢ - إنسانيات محمد.
- ١٣ - الوصايا العشر.
- ١٤ - بين يدي عمر.
- ١٥ - فى البدء كان الكلمة.
- ١٦ - كما تحدث القرآن.
- ١٧ - وجاء أبو بكر.
- ١٨ - مع الضمير الإنسانى فى مسيره ومصيره.
- ١٩ - كما تحدث الرسول (مجلد).
- ٢٠ - أزمة الحرية فى عالمنا.
- ٢١ - رجال حول الرسول (مجلد).
- ٢٢ - فى رحاب على.
- ٢٣ - وداعاً . . عثمان.
- ٢٤ - أبناء الرسول فى كربلاء.
- ٢٥ - معجزة الإسلام عمر بن عبد العزيز.
- ٢٦ - عشرة أيام فى حياة الرسول.
- ٢٧ - والموعود الله.
- ٢٨ - خلفاء الرسول (مجلد).
- ٢٩ - الدولة فى الإسلام.
- ٣٠ - دفاع عن الديمقراطية.
- ٣١ - قصتى مع الحياة.
- ٣٢ - لَو شَهِدْتُ حِوَارَهُمْ لَقُلْتُ .
- ٣٣ - الإسلام ينادى البشر.
- ٣٤ - إلى كلمة سواء (تحت الطبع).

تطلب كتب المؤلف من دار المقطم للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام، على رسوله
الكريم، صلى الله عليه وسلم .
وبعد-

فهذا الكتاب الذى بين يديك -أيها القارئ الكريم- هو
بحق مسك الختام. ختامٌ لعطاء طويل من الأعمال المباركة التى
نفع الله بها الملايين من الناس فى أنحاء المعمورة، ولا يزال
نفعها وبركتها فى ازدياد يوماً بعد يوم، إلى ما شاء الله مثل:
"رجال حول الرسول ﷺ"، و"خلفاء الرسول ﷺ"، و"أبناء
الرسول ﷺ فى كربلاء"، و"الموعد الله" و"كما تحدث
القرآن"، وغيرها من العطاءات، التى رفعت اسم صاحبها فى
الخالدين، وحبته بنصيبٍ وافٍ من دعاء الصالحين* .

لقد كانت نية الكاتب الراحل** -رحمه الله- أن يكون
هذا الكتاب جزءاً أول من كتاب كبير ينتظم أربعة أجزاء،
يقدم فيه الإسلام بكل جوانبه إلى عالم اليوم الذى عانى -ولا
يزال يعانى- الأمرين نتيجة جهله بهذا الدين، ولكن الأجل لم

* أنظر قائمة أعمال المؤلف ص ٦ من هذا الكتاب .

** انتقل الأستاذ خالد محمد خالد - عليه رحمة الله - إلى جوار ربه ليلة

الجمعة ١١ شوال سنة ١٤١٦ هـ الموافق أول مارس سنة ١٩٩٦ م

بمجهله، فلم يتمكن إلاّ من إتمام هذا الجزء عن رسول الإنسانية صلى الله عليه وسلم.

وعلى الرغم من كثرة ما كُتب عن الرسول - صلى الله عليه وسلم، فقد كان المؤلف - رحمه الله - دائم الشعور أنه لم يكتب بعد ما يريد أن يثبه في صفحات الكتب عن هذا النبي العظيم صلوات الله وسلامه عليه، فإنه كلما نزل بساحته، وقف مبهوراً أمام نوره الساطع، وشذا عطره الفواح.. أى بشر هذا؟، وأى نبي ورسول؟

لذلك فقد كان توفيق الله عظيماً أن ختم أعمال كاتبنا الراحل - عليه رحمة الله - بهذا الكتاب الذى هو - بين كتبه - دُرّة غالية، وعطاء فذ جديد، كأنه به قد ترك وصيته للبشرية جمعاء على اختلاف أديانها ومذاهبها، أو ألقى على أسماعها نداءه الأخير، الذى أودعه كل عزمته:

يا أهل الأرض جميعاً ليس لكم خلاص، ولا نجاة، ولا سعادة، ولا هناء، إلاّ باتباع هذا الذى بعثه الله للناس كافّة هدى ورحمة.

اللهم اجعل هذا الكتاب مقبولاً عندك، ثَقُلْ به موازين مؤلفه، وزده من عطائك وإحسانك، وصلى اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

الناشر

بين يدي الكتاب

بين يدي الكتاب

في عام ١٩٨٥ للميلاد رغب المستولون عن مجلة "الحرس الوطني" السعودية في أن أكتب لهم مقالاً دورياً، وأستجبتُ لرغبتهم الكريمة، وبدأتُ أكتب . . .

ولم يأخذني تفكير طويل في الموضوع الذي سيستأثر بكتابتي وبقلمي.

ذلك أنه كان ثمة موضوع يناديني في إلحاح، وأنا أتمناه في شوق.

كان الموضوع عبارة عن تقديم الإسلام- كما أفهمه- إلى عالمنا المعاصر، لعلّه يجد من أمره رشدًا، ولعلّه حين يقرأ هذه الكلمات يجد فيها ما وجده آباؤه السالفون في غيرها من نور هذا الدّين وحكمته.

واخترتُ العنوان الذي أبتُ فيه فكرتي تبعاً، وكان :

((الإسلام ينادى البشر))

وكتبت بضع مقالات وأنا بها سعيد، حتى أدركتنى -
فجأة- بداية مرض طويل، فرحتُ أحاول وأستنجد ببقايا
صحتى وعافيتى، حتى جاءت الأيام التى كَلَّ فيها متنى،
وتخلى عنى جهدى فاكتفيت بما كتبت للمجلة، ولجأت إلى
الله الفتح العليم، ألا يحرمنى من إتمام نعمة هذا الكتاب،
الذى تصورته وسيلة خلاص ناجعة لهذا العالم المتخبط
والتعس.

وأخذ المرض لا أدرى أقول : " يداعبنى " أم " يشاغبنى "
ولم يكن أمامى سوى الطمع فى فضل الله وانتظار فرجه
القريب...

* * *

وما كان للشوق الحميم أن يتركنى للهدوء والتَّصَبُّر؛ فقد
كان تفكيرى كله فى هذا الكتاب، ورغائى كلها فى أن
أحمل قلمى مرة أخرى لأبثُّ به ما يفتح الله من كلمات.
وجاء يوم يحمل إشرقة الأمل، وصحوة العمل، فمضيت مع
الكتاب محاولاً قدر جهدى أن أمضى معه وفيه خطوات
تشجعنى على عزيمة السير والمتابعة . . .
كانت رغبتى فى إتمامه مواكبة لإحساسى بقرب الرحيل..!

وكان همى كُله أن أفرغ منه قبل أن أُدعى فأجيبُ..
فرحت أَعْدُ الخطي، وأقتحم الصَّعب، ممَّا جعل المرض
يَشْتَدُّ ويقوى، ولم يعد يبدو لى إمكان تأليف الكتاب كُله.
وقبل أن يقيّد الكسل واليأس خطاى، أشار على ابنى
محمد، ناشر هذا الكتاب، وصاحب دار المقطم للنشر
والتوزيع، بأن أكتبه مُجزءاً، ويصل للقارئ فى أجزاء، كما
حدث فى كتاب "رجال حول الرّسول" - صلى الله عليه
وسلم - الذى أخرج فى خمسة أجزاء، ثم لا يحمله القارئ
اليوم إلاّ بمجلد واحد، ينتظم الأجزاء الخمسة.
وتذكرت الحكمة القائلة: "مالا يُدرك كُله لا يُترك كُله..."
ومضيت أستأنف كتابة مارأيت أن يكون الجزء الأول من
الكتاب وهو هذا الذى يحمله القارئ بين يديه . .

* * *

ولكن إلى أى شىء ينادى الإسلام البشر؟
هذا طبعاً موضوع الكتاب، فهو ينادى البشر:
- إلى هذا الرسول
- إلى هذا الكتاب "القرآن"
- إلى هذا الدين

- إلى هذه التجربة

وفى هذه الصفحات يقدم الكتاب جُزءه الأول

"الإسلام ينادى البشر

إلى هذا الرسول"

وقد بنيت على بعض ما كنت قد كتبت له لجلّة "الحرس

الوطني"، وتَبَعْتُ بقية ما لم يكن قد نُشِرَ من قبل، فجاء ممثلاً

لما أردت أن أقوله عن نداء الإسلام ودعوته البشر لِلْقِيَا هذا

الرَّسُولِ الْعَظِيمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

خالد محمد خالد

القاهرة - ١٩٩٦

بين يدي الكتاب

فى رائعة النهار . . نهار يوم من أيام الحج الأكبر، نزل
الوحىُ على قلب الرسول ﷺ بآية الختام :

﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ
وَأَتَمَّمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ
لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾

الآية ٣ - سورة المائدة

* * *

كانت الآية الكريمة تسجيلًا للمشهد الختامى فى
رحلة الوحى التى لبث "جبريلُها" الأمين عليه السلام، يغدو
علاؤها بين السماء والأرض على مدى ثلاثة وعشرين

عاما ، حاملا نور السماء إلى الأرض .. وكلمة الله إلى
الناس .. ومنهج الحق والهدى والخير إلى الحياة والأحياء !!..
والآية ، وإن تَكُ تَنْجُو بِخَطَابِهَا الْمُبَاشِرِ وَالْقَرِيبِ إِلَى
عَشْرَاتِ الْأُلُوفِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْخَافِينَ يَوْمَئِذٍ حَوْلَ رَسُولِهِمُ
الْعَظِيمِ . وإلى مِثْلِهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْجُدُّ الْمُبْتَوِّينَ يَوْمَئِذٍ فِي
مَنَاحِي الْجَزِيرَةِ الْوَاسِعَةِ الْمَتْرَاحَةِ ، إِلَّا أَنَّهَا مَعَ ذَلِكَ كَانَتْ
تُجَاوِزُ كُلَّ تَقْوَمِ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ لِتُنَادِيَ بِخَطَابِهَا الْمَضَاءَ بِنُورِ
اللَّهِ جَمِيعَ النَّاسِ ، الْعَاشِينَ عَلَى ظَهْرِ هَذَا الْكَوْكَبِ الْمَعَاصِرِينَ
مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ ، وَالوَافِدِينَ عَلَى الْحَيَاةِ مِنْ بَعْدِهِمْ عَلَى مَدَى
الْأَجْيَالِ الَّتِي سَتَسْتَقْبِلُهَا الْأَرْضُ ، مَا أُذِنَ لِلَّهِ لِلْأَرْضِ أَنْ
تَبْقَى وَتَدُومَ !!..

ذلك أنها تَنْزَلَتْ عَلَى رَسُولٍ قَدَمَتْهُ السَّمَاءُ لِلنَّاسِ كَافَّةً .
﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ
إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾

الآية ١٥٨ سورة الأعراف .

واختاره الله واصطفاه ، ليكون رحمته المهداة إلى البشرية
كافة . ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾
الآية ١٠٧ - سورة الأنبياء .

كذلك أعلنت الآية الكريمة اكتمال الدين الواحد ،
والذى كان دائماً واحداً .. منذ نوح وإبراهيم ، وحتى موسى
وعيسى ومحمد .. عليهم وعلى إخوانهم الأنبياء والمرسلين
أفضلُ الصلاةِ وأزكى السلام .

ذلك الدين الذى اشتقَّ اسمه من حقيقته ..

فحقيقة الدين ، إسلام القلب والوجه والسلوك لله رب

العالمين .

وهكذا ، وبهذه المثابة ، كانت الأديان كلها بل قولوا

كان الدين كله إسلاما ، وكان الرسل كلهم مسلمين !!..

﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ ،

وَفِي هَذَا ، لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا

عَلَيْكُمْ ، وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَيَّ

النَّاسِ ﴾ الآية ٧٨ - سورة الحج .

﴿ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ

أَسْلَمُوا ﴾

الآية ٤٤ سورة المائدة .

﴿ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا

نَصْرَانِيًّا ، وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا

وما كَانَ مِنَ الْمَشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾

الآية ٦٧ - سورة آل عمران.

نزلت الآية إذن تسجّل اكتمال الحلقة الأخيرة من دين
الله، وتُنَبِّئُ البشر جميعاً أن الموثّق الذى بين الله وبينهم قد
بلغ الآن منتهاه وشارف غايته ! !
ومن اليوم سَتُطَوَّى الصحف ، وتحف الأقلام ،
ويتوقف الوحي . .

ويبدأ الذكاء الإنسانى والإرادة الإنسانية اللذان أحسن
الدين تدرييهما عبّر القرون . . يبدأ أن استئناف المسيرة فى نور
الوحي المذخور بين صفحات الكتاب المنزّل :
من صحف إبراهيم وموسى .. إلى الإنجيل فالقرآن.

وَمِنْ ثَمَّ ، لم يكن الإعلام بختام النبوة والوحي حَجْراً على
مستقبل الإنسان - بل كان إفساحاً لهذا المستقبل، ودعوة
للذكاء الإنسانى كى يحمل مسئوليته الكاملة تجاه الإنسان
ومصيره، وتجاه الحياة وإزبائها . مهتدين بهدى الله، ونور
الحقيقة، وإلهام المعاصرة.. وهكذا يكون سيدنا "محمد" ﷺ
وتكون رسالته رحمة للعالمين .

وكما لم يكن الإسلام حَجْراً على ما بعده ، فإنه كذلك

لم يكن إلغاء لما قبله، ولا افتياتا عليه.

رسوله، وقرآنه وسناه..!!

* * *

ولقد تحقق وعدُّ الله لهذا الدين بنشر رياحه ورفع لوائه،
وحفظ كتابه..!! ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ، وَإِنَّا لَهُ

لِحَافِظُونَ﴾ الآية ٩ - سورة الحجر.

وهكذا عاش الإسلام ألف عام وأربعمئة عام ، تعرض
خلالها لسيول طامية وجارفة من المناورات والمؤامرات والمكائد
والحروب ، واستودع ثرى الأرض فى أكثر جنباتها وأقطارها
أعدادًا مباركة وهائلة من شهدائه . . ثم لا يزدد إلا تألقاً
وتفوقاً ونماءً .

تُغادر كلمة من قرآنه مكانها فى مئات الملايين من
المصاحف رغم كل محاولات التحريف والبغى . . ! !
و تَغِبُّ شعاعة واحدة من شمس عقائده ومبادئه . رغم
كل محاولات الإطفاء والبهت . . ! !

بل ولَّوْا مُدْبِرِينَ أمام زحفه ، أولئك الشائتمون
والضاغنون عليه .. ولَّوْا وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم.
ويجترُّون خيبة الأمل ومرارة الإفلاس . . ! !
أجل .. على الرغم من كل ما اقترفته قوى الشر والظلام

ضد الإسلام فى قديم الزمان وحديثه ، بقى لروحه شبابها
النضير ، ولبادئه توهجها . وبقي كيانه الداخلى كله متفوقاً
على كلِّ محاولات الكيد والإحباط...!! وكم كانت رحمة الله
واسعة - حتى يخلصه - حين لم يهزم هذا الدين العظيم
أمام مكائدهم الجائحة. فبقى نوره وبقيت حضارته ، ليأخذوا
بأيدي شعوبهم وبلادهم من وهدة الظلام ، والانحطاط،
والهمجية إلى مدنية ما كانوا ببالغيها لولا الإسلام ونوره..
ولولا الإسلام وحضارته . . ! !

ألا إنه إذا كان هذا الدين حقاً، لا وهماً .

وإنه لكذلك . .

وإذا كان ضرورة ، لا ظاهرة .

وإنه لكذلك . .

وإذا كان دوره فى هداية البشرية وقيادتها لم ينته ،

ولن ينتهى .

أقول : إذا كان ذلك كذلك، فإن إصغاء البشر لندائه

إتيام وهتافه بينهم، يصير من أقدس تبعات رُشدهم،

ومستويات وجودهم . . ليس لأنه يتجاهل ماسبقه من مراحل

الدين، ولا من سبقه من المرسلين . . بل لأنه - دون بقية

الأديان - يمثل الكلمة الخاتمة والجامعة لتوجيهات السماء،
 ويمثل الخلاصة المركزة للتجربة الدينية التي بدأت مع أول نبي
 ورسول إلى أن أتمَّ الله نوره ونورها مع آخر نبيٍّ ورسول .
 فالإسلام بحكم كونه خاتم الأديان قد استبقى منها،
 واصطحب معها كل جوهرها الفريد، ومضمونها العميم..
 كما أنه بهذه المثابة يؤكد حق جميع الرسالات، وجميع
 المرسلين في الإيمان بها وبهم .

﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ
 رَبِّهِ، وَالْمُؤْمِنُونَ . . كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ،
 وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، لَا نَفَرَقَ
 بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ . . وَقَالُوا سَمِعْنَا
 وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾

الآية ٢٨٥ - سورة البقرة .

فكل إيمان لدى الإسلام مُهدر وخِدَاج، ما لم يكن إيماناً
 بكافة الرسالات، وبجميع المرسلين..

والذين يؤمنون ببعض، ويكفرون ببعض، لا يُقيم
 الإسلام لإيمانهم وزناً، لأنهم بهذا التبعض وبهذه التجزئة
 يسلبون الدين أهم خصائصه المتمثلة في وحدته العضوية

والموضوعية، ويحرمون الحقيقة الدينية من أقوى براهين
وجودها وصدقها..

ذلك أن الإسلام هو الحقيقة المشتركة في كل برهان، بل
الحقيقة المكوّنة لكل يقين بوجود الوحي.. ووجود الدين..
وجود الأنبياء والمرسلين . . ! !

وبمشيئة الله وعونه سنلتقى بتوضيح أكثر لهذه النقطة
خلال ما هو آتٍ من صفحات البحث ومنتجعاته . .

* * *

هناك، سنرى رأى العين، ونعلم علم اليقين أن الإسلام
إذ ينادى البشر إليه ، إنما يناديهم إلى الحقيقة الدينية ممثلة في
كل رسالاتها، وكتبها ، ومرسليها ، بيضاء من غير سوء ،
بعد أن ينفي عنها تحريف المبطلين، وضلالة المضللين .

كما سنعلم علم اليقين أنه حين يُنادى البشر إليه..
لاسيما في عصرنا المائل.. فإنما يناديهم ويدعوهم إلى خلاص
أكيد من شِقْوَةِ الضِّياع الذي يفتح أشداق أغواره الفاغرة،
ليبتلع في غياهبها وظلماتها كل مالا حياة للإنسان بدونه مِن
رُوح وضمير.. من إرادة وفكر.. ومن اقتدار على تحرير
وجوده ومُعانقة مصيره . . ! !

أجل.. إن الإسلام بوصفه كلمة الله الخاتمة فى مجال الدين.. وبوصفه وصية الله المحكمة والبالغة فى مجال الحياة.. لقادر على أن يمنح العالم المظلم نوره .. ويهب هذا العالم الخائر الملتاث هُده .

هو قادر على أن يُزيح من طريق الكافة من الناس، والجموع الهادرة من البشر .. أولئك الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحقّ .. أولئك الذين يُمدُّونهم فى الغيِّ .. أولئك الذين كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، وارتابت قلوبهم، فهم فى ربهم يتردّدون . . ! !

الإسلام قادر اليوم ، وغداً ، وبعد غد ، وأبداً ، أن يُجلى عن أرض المسيرة الإنسانية "ديناصورات" البشر، وروحوش الغابة الآبقة ، كما استطاع ذلك فى أمسه القريب والبعيد بنور دعوته ، وصدق حجته ، وذكاء منطقته، وروعة ثباته ، وقوة إصراره ، وجلال تضحياته . . ! !

فيا من تظنّون أن قد بعُدت عليكم الشُّقة. أصغفوا للإسلام فى ندائه ، واقتربوا من بهائه ، وأنهلوا من عطائه .
وإذا سألتهم : إلّاَم يدعوا الإسلام ؟ ؟ وإلى ماذا ينادى البشر ؟ ؟

أجييكم : إنه يناديهم :

* إلى رسوله ..

* وإلى كتابه ..

* وإلى نهجه ..

* وإلى تجربته ..

أجل .. الرسول ، الكتاب ، المنهج ، والتجربة ..

مِنْ هؤلاء يتكوّن الإسلام ، وبهم تتحدّد معا

وخصائص شخصيته المضيئة والباهرة ..

وإليهم ينادى البشر في حذبٍ عظيم ، وشوق حميم ..

"أتقولون : إنَّ "محمدًا"

كاذب . . ؟ ؟ ؟

إن الكذاب لا يستطيع أن يبنى بيتاً

من الطوب ، فكيف برجل بنى

عالمًا من المبادئ ، والأرواح ،

والقلوب " . . ؟ !

أجل - إن الكذاب لا يستطيع أن يبنى بيتاً من الطوب ،

لأننا ببساطة سنقول له : أرنا هذا البيت .. فتَهْوِ أكاذيبه ،

ويُولى الدُّبر . . ! !

ومبادئ التَّغيير والإصلاح ، لاسيَّما الكبير منها والجليل ،

تُشبه أن تكون بناء من زُجاج . تكشف وتفضح كل ما يدور

داخلها ، ووفق ذلك تكشف أنفس الذين يهتفون بها ، وتُعرِّهم

من كل أردية الخداع ، وأقنعة التَّمويه ! !

والصادقون بما وهبهم الله من هُدى قويم ، وبما معهم من

فطرة نقيَّة ، تقية ، بيضاء من غير سوء .. هؤلاء يمشى نورهم

بين أيديهم .. ولصدِّقهم إشرافٌ وضياء ! !

* * *

من أجل هذا ، كان أكثر أعداء الإسلام غباءً ، وأوفاهم

الفصل الأول

بَشَرٌ مِثْلَكُمْ

شخصية الداعى ، هى الدليل الحق ، بل الدليل الوحيد على
شخصية الدعوة .

وحقيقة المبشِّر بفكرة ، والهاتف بعقيدة ، هى حقيقة
الفكرة نفسها ، والعقيدة ذاتها .

والتاجرون بالمبادئ ، مهما أوتوا من حذق فى التنكُّر
ومهارة فى التخفى ، لا يستطيعون أن يخدعوا الناس عن
دخائلهم وما يُمكرون .. وهم آخر المطاف عاجزون تمامًا عن
أن يُحوِّلوا البهتان إلى صدق ، والزَّيف إلى حقيقة !! وكما
قال "كارليل" فى كتابه "الأبطال" مُوجِّها كلماته وسُخرياته
لزعماء "الكنيسة" فى الغرب :

نصيباً من خيبة الأمل ، وسخرية الحقيقة ، أولئك الذين حاولوا - يائسين - النيل من شخصية الرسول ﷺ .. وحاولوا - يائسين - أن يجعلوا عظمتهم الباهرة ، وخصاله العظيمة ، والطاهرة موضع همس ، أو مدعاة تساؤل .. ناهيك عن اتخاذهم إياها موضوع رفض ، أو ارتياب .. !! وذلك حين كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، وارتابت قلوبهم ، فهم في ربهم يترددون !!!

والذين أركسوا بما كسبوا من الغابرين أخفقوا إخفاقاً ما بعده إخفاق ، وانتهى بهم طريقة الزلق إلى الهوة الفاعرة ، وصدّهم عن النيل من شخصية "الرسول" ﷺ ما كان لهذه الشخصية من عظمة أصلها ثابت وفرعها في السماء!!!

وخلف من بعدهم خلف ، ثم خلف ، ثم أخلاف .. شهدتهم عصور تلو عصور ، ماضين على طريق أسلافهم رافعين - في بلاهة وخيبة وتطاؤل - نزوة التحدى ، وسفاهة الانتقاص .. فما كانوا أكثر من سابقهم توفيقاً ، ولا أقلّ خذلاناً وإخفاقاً !! .. !!

ولعلّ تاريخ البشرية لم يشهد شخصية حيرت خصومها وشائتيها ، وردّتهم على أعقابهم صاغرين ، كما فعلت -

بأعدائها وخصومها- شخصية هذا الرسول العظيم . . ! !
 ذلك أنها "شخصية" مُضَاءة ، يُرى باطنها من ظاهرها..
 مفتوحة ، ليس حولها أسوار ولا أستار .. واضحة ومحلوة ،
 كانبلاج الفجر وضوء النهار . . ! !

ولعلَّ أعظم ما تطالعنا به هذه الشخصية ، أنه ليس بين
 مبادئ صاحبها وسلوكه فراغ يتسع لمرور شعرة دقيقة ، أو
 خيط رقيق ! ! وأنه لم يتعد طوال سِنِي عمره ، عن مبادئه ولا
 بقيدِ أُمْلَةٍ . . ! !

وكم كانت صادقة أمُّ المؤمنين "عائشة" رضى الله عنها
 حين سُئِلت عن أخلاقياته فقالت "كان خلُقه القرآن" . . ! !
 ونفس الموقف الذى اتخذته منه شائتوه ، اتخذوه تجاه
 القرآن وتجاه الإسلام .. فما ازدادوا إلا صَغَارًا ، وخَسَارًا ..
 وبقي "الرسول ﷺ" و"القرآن" و"الإسلام" منارًا للسماء
 فى الأرض .. ونبعًا - لا يفيض عذبه وفُراته .. يفيض بالهدى ،
 والخير ، والحق .. وشرفًا تزكو به أقدار الإنسان وأقدار
 الحياة . . ! !

والسماء حين قَدِّمَتْ للأرضِ وناسيها خاتمَ الأنبياء وأجلَّ
 المرسلي ، لم تقدِّمه فى لفافات من غموض . ولا فى طَيِّبات من

بهذه الحقيقة ، ولا من اليقين بأن "الصدق" هو الذى
 سيضحك كثيراً ، لأنه الذى يضحك أخيراً . . . ! !
 وإنَّ للصدق ومضات خاطفةً يفجأ بها الذين عمُّوا ،
 فإذا هم مبصرون . والذين صَمُّوا ، فإذا هم يسمعون . . ! !
 وإنَّ للحقيقة "عبراً" يطرد كل ريح مُتَنٍ ونحيث ، ولقد كان
 صدِّقُ "محمَّد" ﷺ وعبيرُ "محمَّد" ﷺ يدلان عليه .. ويقودان إليه . .
 فأمام "نجاشي" الحبشة ، وقف واحد من أتباعه والمؤمنين
 به يتحدث عنه .

وأمام "هرقل" الشام ، وقف واحدٌ مُمثلاً لكل أحقاد
 قريش ، وكلِّ ضيغنها ولؤمها .
 فهل اختلف الحديثان والمتحدثان فى الشهادة له؟؟
 والاطراء الحقَّ لسموه ونُبله وعظُمته . . ؟ ؟
 أبداً - لم يختلفا . . والتقت شهادة مؤمن الاثنين
 ومُشركيهما على أمر قد قُدر . . وعلى حقِّ استبان وظهر..
 وأبداً ، لم يختلفا ، لأنَّ أنفةَ المشرك عزفت به عن أن
 يُعهد عليه الكذب ! ! وجعلته يعترف -اضطراً وكرها- بما
 كان "محمد الأمين" يُعرف به من نضارة الخلق ، واستقامة

الأحاجي والألغاز .. بل قدَّمته في نور كتابه ، وشفافية
إهابه .. شخصية مقروءة ، مثل كتاب مفتوح ومُتاح ..
صيغت كلماته المسطورة بحروف كبار .. ! !
فمن طفولته ، إلى شبابه ، إلى رجولته ، إلى مبعثه ، إلى
مماته ، وأنباء حياته المباركة منظورة بألف عين .. مسموعة
بألف أذن .. يتعقبها الأعداء والأصدقاء .. ! !
والقرآن العظيم حين قدَّم حامله ، ومتلقيه ، ومُبلغه ،
ورسوله ، لم يُدِّثره بقداسة زاجرة ، تجعل الناس يقفون أمامها
رُكَّعًا ، وهيايين .. ! ! بل قدَّمه بوصفه "بشرًا" من البشر ..
وواحدًا - بين - الجميع .. وإن هيَّأه تفوُّقه لأن يكون
واحدًا - فوق - الجميع !!!

﴿ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ ﴾

﴿ إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴾

﴿ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ ، لَسْتَ عَلَيْهِمْ

بِمَسِيطِرٍ ﴾

هكذا علَّمه القرآن أن يكون ، وأن يقول .. ولقد كان ،
ولقد قال .. هذه الشخصية المقروءة والمسموعة .. المتواضعة
والرفيعة .. لم يغزُب عن صاحبها العظيم مثقال ذرة من الوعي

النهج، وجلال بواعثه، وصدق نيّاته..!!
كان الذى تحدّث أمام النجاشيَّ - جعفر بن أبي طالب
- ابن عم الرسول.. وأحد الذين باكروا إلى الإسلام، وبيعة
"الرسول" ﷺ وقف يقول:

"أيها الملك ..
"لقد كُنّا قومًا أهل جاهليّة،
نعبد الأصنام.. ونأكل الميتة..
ونأتى الفواحش . . ونقطع
الأرحام.. ونُسئىء الجوار.. ويأكل
القوى منا الضعيف ..حتى بعث
الله إلينا رسولاً منّا..نعرف نسبه،
وصدقه ، وأمانته ، وعفاهه ..
فدعانا إلى الله، لنعبده ونوحّده،
ونخلع ما كنّا نعبد نحن وآباؤنا من
الحجارة والأوثان.. وأمرنا بصدق
الحديث .. وأداء الأمانة .. وصلة
الرحم .. وحسن الجوار .. والكفّ
عن المحارم والدماء . . ! !

ونہانا عن الفواحش.. وقول
الزُّور.. وأكل مال الیتیم.. وقذف
المُحصنات.. فصدقناه وأمنّا
به .. " ! ! .

هكذا كان حديث مسلم عن رسوله.. قالها في أمانة
راشدة، وصدق أبلج وعظيم . .

أما المتحدّثُ عن "الرسول" ﷺ أمّا هِرَقْل فكان "أبا
سفيان" زعيم قريش يومئذٍ، وكبير المشركين.. وإنَّ أيَّ حديث
عن الرسول ﷺ، ليظل ناقصًا وخداجًا، ما لم ينتظم هذا
الحوار الذكي والصادق، بين هِرَقْل وأبي سفيان . .

بدأ هِرَقْلُ الحوار بسؤال أبي سفيان.. عن النبي عليه السلام:

هرقل : ما حَسَبَه فيكم ؟ ؟

أبو سفيان : هو فينا ذو حسب ..

هرقل : هل كان من آبائه مَلِك ؟؟

أبو سفيان : لا ..

هرقل : هل كنتم تُتَّهَمون

بالكذب ؟؟

أبو سفيان : لا..

هرقل : هل يتبعه أشراف الناس أم

ضُعفاؤهم ؟؟

أبو سفيان : بل ضُعفاؤهم ..

هرقل : أيزيدون ، أم ينقصون ؟؟

أبو سفيان : بل يزيدون

هرقل : هل يرتدُّ أحد عن دينه بعد

أن يدخل فيه، سخطاً له ؟؟

أبو سفيان : لا ..

هرقل : هل قاتلتموه ؟ ؟

أبو سفيان : نعم . .

هرقل : كيف كان قتالكم إياه ؟؟

أبو سفيان : تكون الحرب بيننا

وبينه سجالاً .. يُصيبُ

مناً، نُصيب منه . .

هرقل : فهل يغدر ؟ ؟

أبو سفيان : لا . .

هرقل : يأمركم ؟ ؟

أبو سفيان : بالصلاة، والزكاة،

والصُّلَّة، والعَفَاف ..

هاتان شهادتان لعدو، وصديق.. لمشرك يحاربه، ولمسلم
يصدِّقه.. فهل اختلفتا فى الهُتاف برفعة مناقبه، وسُمورِّ
مبادئه..؟!

ولقد أعطى "هرقل" فى ذلك اليوم البعيد مثلاً نبيلاً لمنهج
الرجل الحصيف المنصف فى تمحيص الحقيقة، واستطلاع
الرأى.

وعلى الرغم من أن لفظ حاشيته، ومخافة التمرُّد من
شعبه، قد صرفاه عن اعتناق الإسلام. فإن الطريقة والحوار
اللذين عالج بهما القضية المثارة، قد أبانَا جَدارة "الرسول" عليه
الصلاة والسلام بالتصديق والإتباع.. بالتوقير والإكبار.. حتى
وَفَقَّ مقاييس الحياد والتَرَدُّد . . مادام حيادًا يتوخى النزاهة،
وتردُّدًا ينتظر الشجاعة، أو ينتظر البرهان . . ! !

وإنا لنستبينُ ذلك من الكلمات الناصعة والبارعة التى
عَقَّبَ بها "هِرَقْلُ" على هذا الحوار.. فقد قال لَتَرْجُمَانِه:

"قل له - يعنى أبا سفيان - لقد

سألتك عن حسبه فيكم، فرعمتَ

أنه فيكم ذو حسب .

وكذلك الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي أَحْصَابِ
قَوْمِهَا !!

"وَسَأَلْتُكَ : هَلْ كَانَ فِي
آبَائِهِ مَلِكٌ ؟ .. فَرَعِمْتُ أَنْ .. لَا
فَقُلْتُ : لَوْ كَانَ فِي آبَائِهِ مَلِكٌ ،
لَكَانَ رَجُلًا يَطْلُبُ مُلْكَ آبَائِهِ !!
"وَسَأَلْتُكَ عَنْ أَتْبَاعِهِ أَوْ ضَعْفَاءِ
الْقَوْمِ أَمْ أَشْرَافِهِمْ ؟ فَقُلْتُ : بَلْ
ضَعْفَاؤُهُمْ .. وَكَذَلِكَ أَتْبَاعُ
الرُّسُلِ !!

"وَسَأَلْتُكَ : هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهَمُونَهُ
بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ ؟
فَرَعِمْتُ أَنْ .. لَا .. فَعَرَفْتُ أَنَّهُ لَمْ
يَكُنْ لَيَدْعُ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ ،
وَيَكْذِبُ عَلَى اللَّهِ !!

"وَسَأَلْتُكَ : هَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ
عَنْ دِينِهِ ، بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ ،
سَخَطَةً لَهُ ؟ فَرَعِمْتُ أَنْ .. لَا ..

وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته

القلوب !!

"وسألتك : هل يزيدون، أم

ينقصون؟ فزعمت أنهم يزيدون..

وكذلك الإيمان حتى يتم !!

"وسألتك هل قاتلتموه ..؟

فزعمت أنكم قاتلتموه، وأن الحرب

بينكم وبينه سجال، وكذلك

الرسُل تبلى . . ثم تكون لهم

العاقبة !!

"وسألتك : هل يغدر؟

فزعمت أنه لا يغدر.. كذلك

الرسُل لا يغدرون !!

ثم يحتتم "هريقل" حديثه البليغ قائلاً لأبي سفيان:

"إنَّ يَلِكُ ما تقول حقاً، فإنه

نبي .. ولقد كنت أعلم أنه

خارج .. ولم أكن أظنه منكم ..

ولو أعلم أني أخلص إليه،

لأُحِبُّ لِقَاءَهُ.. وَلَوْ كُنْتُ عَنْدهُ،

لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمَيْهِ .. " ! !

* * *

هَكَذَا كَانَ عَبِيرُهُ.. وَكَانَ نُورُهُ.. يَهْدِيَانِ إِلَيْهِ، وَيَدُلَّانِ
عَلَيْهِ ! ! حَتَّى أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يَرَوْهُ وَلَمْ يَجْلِسُوا إِلَيْهِ.. بَلْ
كَانَ مَصْدَرُهُمْ فِي مَعْرِفَتِهِمْ بِهِ مَجْرَدُ السَّمَاعِ عَنْهُ.. وَمَنْ ؟ ؟
مَنْ أَكْثَرَ خُصُومِهِ لِدَدًا، وَأَقْسَاهُمْ قَلْبًا، وَأَعْنَفَهُمْ حَرْبًا . . ! !
إِنْ "هَرَقْلُ" حِينَ ثَمَنِي أَنْ يَنَالَ شَرَفَ لِقَاءِ سَيِّدِنَا "مُحَمَّدٍ"
عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَحِينَ وَدَّ لَوْ يَنَالَ غَسْلَ قَدَمَيْهِ
الشَّرِيفَتَيْنِ، لَمْ يَكُنْ قَدْ تَشَاهَدَهُ، وَلَا عَايَشَهُ، بَلْ وَلَا رَأَاهُ..
فَكَيْفَ لَوْ كَانَ رَأَاهُ ؟ ؟ !

إِنْ كُلُّ مَا عَرَفَهُ بِهِ، بَضَعَ كَلِمَاتٍ سَمِعَهَا عَنْهُ .. وَمَنْ ؟ ؟
مَنْ ضَاغِنٌ، وَشَانِيءٌ، وَعَدُوٌّ، يَقْتُلُ الْحَقِيقَةَ مِنْ تَحْتِ
أَضْرَاسِهِ اقْتِلَاعًا.. خَشْيَةٌ أَنْ يُعْرِفَ عَنْهُ الْكَذِبَ إِذَا هُوَ
تَجَانَفَ أَوْ زَاغَ.. ! !

فَكَيْفَ تَفْتَحُ عَقْلُ "هَرَقْلُ" وَقَلْبُهُ لِهَذَا الَّذِي سَمِعَ.. ؟ ؟
وَكَيْفَ تَضَمَّنَتْ رُوحَهُ بَعْطِرٍ لَيْسَ مَعَهُ قَارُورَتُهُ.. عَطِرٍ
قَادِمٍ مِنْ بَعِيدٍ .. ؟ ؟ ؟ ؟ !

وكيف انثنى صدره على ذلك الشوق الحميم إلى لقاء
 "الرسول ﷺ" وتلك الرغبة الحثيثة في أن يغسل قدميه . . ۱۱۹
 وكيف كاد يُسلم لولا تصايح رجال حاشيته ، وأباطرة
 كنيسته . . ؟ !

لا أحسب أن ثمة سبباً يقدم لنا جواباً شافياً ، ويفسر لنا
 هذه الواقعة وهذه الظاهرة سوى ما كانت عليه شخصية
 الرسول ﷺ ، وشخصية دعوته من قوة الصدق.. وقوة
 الجذب . . وقوة التأثير . . ! ! !

أما قوة "الصدق" فلأنه كان رسولاً حقاً، لا رسولاً
 مُتَجَلِّلاً . . وكانت هناك نبوءات صادقة ، وإرهاصات ناطقة
 بحتمية مجيئه ، وقُرب ظهوره .. نبوءات كان يعرفها العالمون
 والمخلصون من أهل الكتاب - وإن استغشى عليها ثيابهم قوم
 آخرون من أهل الكتاب وأيضاً انحدروا إلى كتمانها، وتردّوا
 في إنكارها ! ! ! !

وأما قوتنا الجذب والتأثير، فلأن أولئك العظام الذين
 يختارهم الله لحمل رسالته ، ويصطنعهم لنفسه ، ويصنعهم
 على عينه - يُودِع شخصياتهم من الفيض ومن الإيحاء ما
 يُدني منهم القلوب ، ويُطوِّع لهم رغائب الآخرين ومودّتهم..

حتى إن تأثيرهم وهم غائبون، يكاد ينافس تأثيرهم وهم شهود
وحاضرون . . . !!!

"فالمسيح" عليه السلام، رآه والتقى به فى حياته عشرات
من الناس أو مئات - منهم من آمن به، ومنهم من كفر. لكنّه
منذ أن رحل عن دنيا الناس ، ومئات الملايين تدخل مجال
جاذبيّته طائعة، راغبة، مشتاقة . .

"والرسول" ﷺ غادر الدنيا إلى الرفيق الأعلى تاركًا
عشرات الألوف من الذين رأوه، وعاصروه، وآمنوا به،
وأتبعوه .. لكنّه منذ رحيله ، ومئات الملايين كذلك تدخل
مجال جاذبيّته ، وتأنسُ بدينه ، وتسارع إليه طائعة ، راغبة،
مشتاقة . . !!!

* * *

إنَّ قوَّةَ الصدق، وعُرام الطاقة الكامنة فيها قوَّةُ الجذب
والتأثير لرسالة "الرسول" ﷺ و "شخصيته" لم تكفأ - عبر
الأجيال - عن تقديم النموذج الذى قدمناه منذ أربعة عشر
قرنًا من خلال الحوار المُشيع بين "هرقل" و "أبى سفيان" !!
فكثير من الذين عاشوا على دين غير دين "محمد" ﷺ،
رفضوا أن يخونوا الحقيقة، ويؤيدوا قول الحق فيه.. ورفضوا أن

يُغالطوا أنفسهم، ويكتموا الحقَّ وهم يعلمون.. فمضوا -
صادقين وشجعاناً - يصدَّعون بما عَرَفوه عن عظمتهم،
وصدقه، وإخلاصه.. ويصدِّحون - في كلمة فرح مغتبطة - بما
بهرهم من شخصيَّته المُضاءة والمضيئة.. لنقرأ مثلاً لواحد من
هؤلاء الذين أنجبهم عصرنا الحديث - ذلك هو "لامارتين" ..

إنَّه - كما نعلم - يُعرَف عنه إيمان بالإسلام ولا برسوله
ولا بقرآنه - ومع هذا فقد آمن بما احتشدت به شخصية
"الرسول" من صدق، وبرٍّ، وسُموٍّ، ونُبل، ورحمة، وهُدًى،
وأمانة، وعفة، وذكاء، وخلُق، ومن اقتدار هائل على تحدّي
الباطل وكُنس الضلال.. ومن إيمان عميق باللَّه، وتبتُّل
للدعوة، وولاء مُفِيض لقيم الحق، والعدل، والخير، والفضيلة،
والجمال...!!

فصوِّر ذلك كلَّه في كلمات أعطت التعبير النهائي لما
يستطيع إنسان أن يُبدى من حبٍّ، وتقدير، وإجلال.. ها هوذا
يتحدث ويقول :

"لم يظهر - قطُّ - رجل مثل
"محمد" ﷺ عقْدَ نيَّته حول غاية أعظم

سُموًا .. غاية فوق قدرة البشر.
تستهدف هدم الخرافات القائمة بين
الخلق والخالق.. وإِعادة الرّبِّ
إلى الإنسان، والإنسان إلى الرّبِّ..
وإصلاح المبدأ العقليّ السليم تجاه
الألوهية فى خَواء آلهة الوثنية الغلاظ
المشوّهين . . ! !

يظهر قطُّ رجل مثله قام
فى أقل وقت بثورة بالغة الشمول،
والاستمرار. فنشر الإسلام فى أقسام
جزيرة العرب الثلاثة، وفتح
لوحْدانية اللّٰه بلاد فارس،
وخراسان ، وما وراء النهرين،
والهند ، والشام، ومصر، وجميع
القارة المعروفة بأفريقيا
الشمالية، وكثيرًا من جزر البحر
المتوسط، وأسبانيا، وقسمًا من
بلاد المغول . . ! !

وإذا كان عِظَم المقصد، وضآلة
الوسائل، واتساع النتائج مقاييس
ثلاثة لعبقرية الرجل.. فمن ذا الذى
يجرؤ على تشبيه أحد من عظماء
العصر الحديث بـ"محمد ﷺ" ١٩٠٠

إن أبعدهم صيتًا يصنع غير
هزّ السلاح، وزعزعة الدُّول.. ثمَّ
يُقيموا - إذا كانوا قد أقاموا
شيئًا - سوى سلطات مادية
مُنهارة. !!!

صحيح أن "عمدًا" ﷺ هزّ سلاحًا،
وأزاح شرائع، وزعزع دُولًا وأممًا
وأباطرة . .

بيد أنه فوق ذلك أزاح أفكارًا،
ومعتقدات، وغير نفوسًا، وأقام على
كتاب - أصبح كل حرف منه
شريعة - جنسية وروحية لأمم
شتى . . ! !

ثم هو قد طبع هذه الجنسية
الإسلامية بِسْمَةِ الْمُقْتِ لِلْآلِهَةِ
الباطلة، والحب لله الواحد
الأحد...!!

فيلسوف ، وخطيب.. رسول،
وْمُشْرِع ، محارب ، وفاتح لأفكار،
ومصلح لعقائد .. مُخِي لِعِبَادَةِ بغير
صُورَ وَلَا تَمَائِيل . . !!

مؤسس لعشرين دولة دنيوية،
ومُنْشِئ لعالم من الروح...!!
ذلكم، هو "محمد" ﷺ ..

فمن ذلك الرجل الذي يمكن أن
يكون أعظم منه، بكل المقاييس التي
تُقاس بها عظمة الإنسان . . ؟ !!

ما الذي جعل هذا الشاعر الفرنسي الكبير - من شعراء
القرن التاسع عشر - يُرْصِّع كتابه "السَّفر إلى الشرق" بهذه
الكلمات الرِّضاء الحِسان، عن رسولٍ لم يُعرف عنه إيمان به،
ولم تَصُدَّه مسيحيتته عن الاعتراف بعظمته، وروعة أيامه..؟!

ما الذى هاج أشواقه إلى العظمة الإنسانية حتى رآها مكتملة
ومزدهرة فى شخصيّة رسولنا ﷺ، وفى أخلاقه، وفى دينه،
فراح يحييه تحيّة مؤلّه جَدلان..!!
عليه صلاة الله وسلامه، وله تحياته وبركاته.. فهو رحمة
الله للعالمين.

ولنقل مع "لامارتين" :

مَنْ ذلك الرجل الذى يمكن أن
يكون أعظم "منك"، بكل المقاييس
التي تُقاس بها عظمة الإنسان..!!

الفصل الثاني

رجل كلِّ العصور

إنَّ هذا الذى تلوناه، وطالعناه من كلمات الشاعر
والمفكرِّ الفرنسىِّ الكبير "لامارتين" لم يكن وحيداً بين الآراء
والاعترافات التى أدلَّى بها فى إعجاب وافتتان وصدق رجالٌ
كثيرون، وكبار، من الذين أمضَوْا حياتهم، وقضوا نحبهم، وهم
خارج دائرة الإسلام.

يَبْدُو أنَّ ثقافتهم وأطلاعهم الواسع المتراحم.. ثم
احترامهم لأنفسهم ولتفكيرهم.. كل هذا جعلهم يحنون أمام
عظمة الرسول ﷺ ونقائه وتُقاه!!

ثم لم يستطيعوا صبراً على اختزان إعجابهم، ولا على
كِتمان الولاء الذى أفعم به وجدانهم وتفكيرهم..

ولاء مَنْ، ولمن..؟؟

ولاء أناسٍ منصفينَ يدينون بغير دين محمد ﷺ .. أذهلهم منه خلُقه، وطُهره، وروعة ثباته، وبطولة تضحياته، وصدقه مع ربه، ومع نفسه، ومع الناس.. ثم احترامه الوثيق والعميق للعدل، وللحرية، وللحق، وللخير، وللحقوق الإنسان.

* * *

ولم يكن الشاعر في "لامارتين" هو الذى صاغ إعجابه المغتبط، وشهادته المتألّقة - فحسب - بل كان عقله يسابق وجدانه نحو هذا الإعجاب، وهذا الانبهار.

وكأىٍّ من عالمٍ غربىٍّ.. يعتمد فى تكوين أحكامه على المنطق، والتحليل، والمناقشة، والمقارنة.. يشكُّ ليعرف.. ويتوقّف قبل أن يحكم.. استطاع فى ضياء إخلاصه وصدقه، ونزاهة عقله وفكره - أن يصل إلى نفس النتيجة التى تؤكّد ندرة الوجود المحمدىّ بين كل وجود وكل موجود..

هذا.. مثلاً.. "روم لاندو" الذى عمل أستاذاً للدراسات الإسلامية والشمال - أفريقيّة، فى جامعة المحيط الهادى بكاليفورنيا.. يقول فى كتابه: "الإسلام والعرب":

كان "محمد" ﷺ تقيّاً بالفطرة. وكان

من غير ريب مهتياً لحمل
رسالة الإصلاح التي تلقاها
فى رؤاه .. وكان يملك إيماناً لا
يلين بفكرة الإله الواحد. وعزماً
راسخاً على استئصال كل
أثر من آثار عبادة الأصنام التي
كانت سائدة بين الوثنيين
العرب.

"كانت مهمته هائلة ! !

"وإنَّ الرَّعْمَ القائل بأن
فترات تلقيه الوحي كانت نوباتٍ
صرعٍ زعمُ خاطئٍ على نحو
جليٍّ .. ذلك لأنَّ من يتعرّض
لهذه النوبات ، لا يمكن أن يكون
مالكاً وعيه ومنطقه إلى حدٍّ
القدرة على النطق بمثل المقاطع
المعقّدة والعميقة التي نطالع
الكثير منها فى القرآن ..

"إنَّ الإخلاص الذى تكشّف
عنه محمد فى أداء رسالته، وما
كان لأتباعه وأصحابه من إيمانٍ
كامل بما نزل عليه من وحى
واختبار الأجيال والقرون .. كل
أولئك يجعل من غير المعقول اتهام
محمد بأيّما ضربٍ من الخداع
والتلفيق .

"فلم يعرف التاريخ أى تلفيق
دينى متعمد - حتى حين
يكون صاحبه عبقرياً فى الدجل -
استطاع أن يعمر طويلاً .

"وإن الإسلام لم يعمر حتى الآن
ما ينيف على ألف وأربعمائة سنة،
فحسبُ بل إنه لا يزال يكسب فى
كل يوم أتباعاً جددًا".

* * *

حين وصفه الله سبحانه وتعالى بأنه "رحمة للعالمين" لم

يكن هذا الوصف تحية من عند الله له فحسب.. بل
كان كذلك إرهاباً بما سيظفر به من البشرية في كل
عصورها وأجيالها من حمد لا يطاوَل، ومجد لا ينصُل بهاؤه..
بما يحمل قلبه الكبير للناس من رحمة، وبما يغذوهم به من نعمة
الهدى وزاد الحقيقة.

وهكذا لم يكن الرسول ﷺ عظيم أيام دون أيام ولا
عصور دون عصور.. لأنه لم يكن داعية مرحلة بل داعية
أبد!! ولقد غدقت روافدة ونبائعه - عبر الأجيال والقرون -
بكل طيب وصادق وجميل من عذب القول وخالص العمل ،
وجلال السلوك !!

من أجل ذلك ، كان "الرجل" الذي تتألق فيه معالي
الأمر وتتلق به ومعها القدوة الصالحة في كل عصر وجيل!!
ومنذ جاء محمد ﷺ وإلى يوم الناس هذا. ثم إلى الأبد
وما بعد الأبد - إن كان للأبد بعد - .. يجد كل عصر فيه وفي
دينه قدوته ، وأُسوته.. وآماله المرجوة.. وخلاصه المرقوب!!
هو إذن أمام كل زمان. وقائد موكب متساق من الناس
والأيام والأحلام والمبادئ والرؤى والقيم.. موكب لا يؤذن
بانتهاه ..

ولقد أذعن لهذه الحقيقة وأذاع بها — منصفون كثيرون
من مفكرى أوروبا المنصفين ..
وهذا واحد منهم يقول :

"لقد أظهر محمد عظمته
الحقيقية فى أنه لم يكن رجلاً
عصرٍ بعينه .. بل رجلاً كل
العصور .. ولم يكن محمد حالماً ..
بل عكف على ترسيخ أسس المجتمع
الذى رسمه لنفسه ..

"كان رجل دولة لا نظير له !!
فقد استطاع فى عصرٍ عمه التفتُّخ
الذى لم يكن ثمّة أمل فى الشفاء
منه .. وبالحامات البشرية التى
وجدوها بين يديه من حوارٍيه
وأصحابه .. أن يبنى دولة ومجتمعاً
على أسس عالمية رائعة" !!

هكذا صدع المستشرق "موير" وصدح بهذه الشهادة
الصادقة فى كتابه : "حياة محمد" رغم ما كان يخرج به أحياناً

من استنتاجات مغلوطة !!..

إنَّ شرف الحق وقداسته يفرضان على أولى الألباب
والنَّهْيَ الاحترام لهما ، والاعتراف بهما . وبالتالي لمن وبمن
يحمل راية الحق ، حانياً عليه .. وداعياً إليه ..
هكذا كان الرسول محمد ﷺ ولسوف يبقى ، فى
الصدارة من هؤلاء الحانين والداعين .

* * *

تُرى من يكون هذا الرجل الفذُّ ، والرسول العظيم ..
وماذا كان سره المعجز والمهيم ؟ ؟ أمّا من يكون ؟ ؟ فسيأتى
حديثه عما قليل . . وأمّا سرّه الذى حبّبه إلى الناس وزينه فى
قلوبهم - مكذّبين ومؤمنين .. راضين وكارهين .. ممّن هم
معه، وممن هم عليه. فأمر يبهّر الألباب حقاً .. وتحار فيه
العقول !!

فمِنَ الجاهليين الذين آمنوا به ، وأتبعوا النُّور الذى أنزل
معه.. إلى أولئك المفكرين الكبار من أوروبا والغرب الذين لم
يُسلِّموا معه .. وأسلموا واستسلموا لسرّه الجليل، وعظمته
المتفوّقة، ومواهبه المتألّقة، بين أولئك وهؤلاء رؤية مشتركة
لهذا السرِّ، ولتلك العظمة وهاتيك المواهب .

وهى رؤية ترى المؤمنين مناسكهم وأسوتهم .. وترى
غير المؤمنين ، ذلك الألقى الإنسانى الذى يفجر فى أنفسهم
التيه والخيلاء ، إذ أنهم ينتمون لهذه البشرية الباقية التى أنجبت
- فيمن أنجبت - هذا الإنسان الممجّد والعظيم ..

وليس إجلال المفكرين الغربيين له بأكثر دلالة من إجلال
الذين عاصروه من العرب، وتلقّوا منه كلمات الله ، وحملوا
معه راية القرآن والإسلام .

وليس السرّ الكامن وراء هذا الإجلال من كلا الفريقين
إلا تفسيراً صادقاً للعجب الذى يملأ أفئدتنا ويستجيش ألباننا
تجاه بساطة وعظمة وتأثير هذا الرسول الأمين .

ففى بيئته وقومه ، وزمانه ، حيث يقوم لرب العالمين ،
بين قوم لهم فى بعض المواهب والخصائص شموخ .. وإنهم
لعنيدون فى طلب الدليل والبرهان على كلّ دعوى وقضية ..
متعاضمون حتّى حين تغشاهم المسغبة ويُمْلِقون .. سادة لم
يذلّوا قطّ لغازٍ ولا دخيل .

فى هذه البيئة اللافحة والمستعلية . وبين هؤلاء الناس
المتغطرسين الغلاظ ، كيف فرضت شخصية الرسول ﷺ
احترامها وجلالها ، حتّى قبل أن يُبعث رسولا .. بل حتّى

وهو شاب في عمر أبناء بعضهم ، وأحفاد الآخرين ؟؟
 ثم كيف أشرقت قلوبهم بنور ربها بعد بعثته ، وحملوا
 من الإيمان ما يبذل كل نظير . . ؟ !
 دعوني أنقل من كتابي "رجال حول الرسول" هذه
 الكلمات والتساؤلات :

* ما الذي جعل سادة قومه يسارعون إلى كلماته ودينه —
 أبو بكر، وطلحة، والزبير، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن
 عوف، وسعد بن أبي وقاص .. متخلين بهذه المسارعة المؤمنة
 عن كل ما كان يحيطهم به قومهم من مجد وجاه،
 مستقبلين - في ذات الوقت - حياة تَمُور مَوْرًا شديدًا بالأعباء
 وبالصعاب وبالصراع . . ؟ !

* ما الذي جعل ضعفاء قومه يلوذون بحماه، ويهرعون إلى
 رايته ودعوته وهم يصرونه أعزل من المال، ومن السلاح..
 ينزل به الأذى ويطارده الشر في تحد رهيب دون أن يملك له
 دفعا ؟ !

* ما الذي جعل جبار الجاهلية - عمر بن الخطاب - وقد
 ذهب ليقطف رأسه العظيم بسيفه يعود ليقطف بنفس السيف
 الذي زاده الإيمان مضاءً رعوس أعدائه ومضطهديه . . ؟ !

* ما الذى جعل صفوة رجال المدينة ووجهائها يفدون إليه ليبياعوه على أن يخوضوا معه البحر والهول، وهم يعلمون أنَّ المعركة بينهم وبين قريش ستكون أكبر من الهول . . ١٩ !

* ما الذى جعل المؤمنين به يزدون ولا ينقصون ، وهو الذى يهتف فيهم صباح مساء : ﴿ لَا أَمْلِكُ لَكُمْ تَقَعًا وَلَا ضَرًّا ، وَلَا أَدْرِ مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ﴾ . ١٩ !

* ما الذى جعلهم يصدقون أنَّ الدنيا ستفتح عليهم أقطارها . وأن أقدامهم ستخوض خوضاً فى ذهب العالم وتمشى فوق تيجانه . . وأن هذا القرآن الذى يتلونه فى استخفاء سترده الآفاق عالى الصَّح قوَّى الرنين - لا فى جيلهم فحسب . . ولا فى جزيرتهم وحسب . . بل عبر جميع الزمان وجميع المكان . . ١١ !

أجل . . ما الذى جعلهم يصدقون هذه النبوءة يحدِّثهم بها رسولهم ﷺ ، وهم الذين يتلفتون فلا يجدون أمامهم وخلفهم، وعن إيمانهم وعن شمائلهم سوى القيط والسغب وحجارة تلفظ فَيَح الحميم، وشجيرات يابسة طلعتها كأنه رُءوس الشياطين. ١٩ !

* ما الذى ملأ قلوبهم يقيناً وعزماً . . ١٩ !

إنَّه ابن عبد الله ! !

ومن لكل هذا سواه ؟ !

لقد رأوا رأى العين كلَّ فضائله ومزاياه .

رأوا طهره، وعفته، وأمانته، واستقامته، وشجاعته.

رأوا سُمُوّه وحنانه .. رأوا عقله وبيانه.. رأوا الشمس

تألق تألق صدقه وعظمة نفسه..

سمعوا نَمُوَّ الحياة يسرى فى أوصال الحياة عندما بدأ

محمد ﷺ يفيض عليها من وحى يومه وتأمّلات أمسه . . !

رأوا كلَّ هذا ، وأضعاف هذا ، لا من وراء قناع .. بل

مواجهةً وثمرُسا ، وبصرًا وبصيرة .. .

وحين يرى عربىُّ تلك العصورِ شيئاً ويفحصه فلا ينبُك

أنثذٍ مثلَ خبير .. .

فهم أهل "القيافة والعيافة" يرى أحدهم وقع الأقدام على

الطريق فيقول لك : هذه قدم فلان بن فلان..!!

ويشم أنفاس محدثه فيدرك ما تحت جوارحه من صدق

أو بهتان .

هؤلاء رأوا عمداً ﷺ وعاصروه منذ أهلّ على

الوجود وليداً .

لم تخفَ عليهم من حياته خافية .

كلُّ رؤاه ، كلُّ خطاه ، كلُّ كلماته ، كلُّ حركاته ، بل
كلُّ أحلامه وأمانيه وخاطرات نفسه كانت من أوّل يوم أهلاً
فيه على الدنيا حقاً للناس جميعاً .

لكأنَّ الله تعالى أراد بهذا أن يقول للناس هذا رسول
إليكم -وسيلته المنطق والعقل- وهذه حياته كلها مذ كان
جنينا .

فبكلِّ ما معكم من منطق وعقل، افحصوها
وحكّموها.. هل ترون فيها شبهة ..؟ هل تبصرون
زيفاً..؟ هل كذب مرّة؟ .. هل خان مرّة؟ .. هل هبط
مرّة؟.. هل ظلم إنساناً..؟ هل كشف عورة ..؟ هل خفر
ذمة ..؟ هل قطع رِحماً ..؟ هل أهمل تبعة ..؟ هل تخلّى
عن مروءة ونجدة . .

هل شتم أحداً ..؟ هل استقبل صنماً؟.

* * *

كما يقول "كارليل" :

"كان ظهور محمد ﷺ في الحياة

ولادة من الظلمة إلى النور..!"

كان قومه على شفا حفرة من النار ، فأنقذهم منها ..
ولا يزال ، وسيظل منقذاً لكلِّ الواقفين على شفا الحفر ..
والسائرين - فى عمى - نحو مهاوى الخطر !! وإنَّ الكلمات
المضيئة والجريئة والمفيضة التى واجه بها قومه فى الساعات
الأولى من بعثته سَيُطِلُّ بوجهها إلى العالم فى شتى عصوره
ودهوره وأجياله ..

وهذا ما يجعله "رجلَ كلِّ العصور" !!..
فعندما أنبأه الله سبحانه أن وقته قد حان .. وأنَّ دوره
قد جاء ليبلغ رسالته وندارته وبشارته بادئاً بعشيرته الأقربين -
صعد الصفا ، ونادى يا معشر قريش . .
وراح القرشيون يعدون ، ويقطعون الأرض وثبا نحو
الأمين !!

وتخلَّقوا حولَه ، وعيونهم تلهَّف ، وآذانهم تُعطى
السمع فى سكون .

وأشار محمد ﷺ بيمينه - بارك الله يمينه - وقال :
"أرايتم لو أخبرتكم أنَّ خيلاً بالوادي تريد أن تغير
عليكم. أكنتم مُصدِّقِيَّ . . ؟

قالوا فى صوت واحد : نعم واللات .. فما جرَّبنا عليك

كذِبًا .. !!

قال : "فإن الله قد أرسلنى إليكم، لتعبده ولا تشركوا
به شيئاً .. وإنى نذير لكم بين يدي عذابٍ شديد".
وتغشَّى وجوه أكثرهم نجسٌهم ووجوم .. ولوَّأ أعناقهم
التي بدت وكأنَّها تحمل الأنيار المعرصة فى أعناق
البقرات والثيران !! .

لكنهم لا ذوا بصمتٍ . ولم تفتح بدائهم عليهم بكلام ..
وفجأة . انبعث أشقاها !! ومن أسفر أن كان هذا
الشنقى عمه أبا لهب ، الذى قال : تبا لك . . ألهذا جمعنا ؟ ؟

إن محمداً صلى الله عليه وسلم ..
إن "رجل كل العصور" لا يزال هناك قائماً فوق الصفا أو
فوق البطحاء ينادى الناس أنه نذير لهم بين يدي عذاب
شديد .. يدعوهم إلى الخير ، ويناديهم إلى الحقيقة .. ويدلهم
إلى خالقهم . ربهم ورب كل شيء !!
إنه يرسل فى الجموع من كل جيل سنا مبادئه وصدقته
وكلماته الوضاء .. !!

وينادى الذين تفصموا عن حقائق الدين - كل دين - إلى

الحقيقة التي لا انفصام لها ..

ولكل من تلك الجموع والأجيال "أبو لهبا" يشغب
بغثيث القول وأرذله ، ويقول للصوت الصادح بالحق : تباً لك
سائر يومك . ألهذا جمعنا ؟ !

أجل إنَّ محمداً ﷺ هنا وهناك .. إنه معنا ومع
الآخرين .. مع البشرية كلها منذ اصطفاه ربّه ليكون للعالمين
نذيراً ..

إنّه "رجل كل العصور"
منقذها ، وهاديها ، ومحطّم أغلالها وسلاسلها ومطلق
أرواح بنيتها من الأسر ، وواضع الإصر عنها ..
ومنذ قال الله تعالى له :

﴿ فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ، وَمَنْ تَابَ
مَعَكَ، وَلَا تَطْغَوْا . إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
بَصِيرٌ ﴾

﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا،
فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ . وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ
اللّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ . ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴾
﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ ،

وَزُلْفًا مِنَ اللَّيْلِ ، إِنَّ الْحَسَنَاتِ
يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ، ذَلِكَ ذِكْرَى
لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٢﴾
﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ﴾

سورة هود - الآيات ١١٢ - ١١٥

منذ تلقى من الحكيم الخبير هذه الآيات المباركات من
القرآن العظيم وهو يعلم أن أول عناصر الاستقامة كما أمر ..
وعلى ما أمر .. ألا يكفّ - ومن تاب معه - عن توجيه النداء
إلى الناس ، وتذكيرهم بأيام الله ، ودعوة المطرّحين فى
الأماكن البعيدة ، والمتاهات السحيقة إلى عالم القرب من
الله .. وإلى النور الذى لا ينطفئ ، والصحبة التى لا تضل ،
والهدى الذى لا يزيف ..

ولقد أدرك تمامًا .. لماذا أتبع الله أمره له بالاستقامة
على الأمر . والعزيمة على الرشد بقوله سبحانه ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ .
ذلك وأنه رحمة الله للعالمين وأنه رجل كل العصور
ونبيها ومعلمها ، لا بد أن تكون الوسيلة عنده فى طهر الغاية
ونبلها .. فى جمالها وجلالها .. فىكون مقامه دومًا مقام من

يدعو جُموعًا .. لا من يسوق قطيعًا !!

وكيف يوجّه تعاليمه وقيّمه .. وعقله وقلبه .. وهُدهداه
ونُهاه إلى البشر أجمعين إذا لم تكن الدعوة والحكمة والموعظة
الحسنة نهجه وسبيله . . ؟ ؟ ؟

وهل كان الفكر الأوروبيُّ المنصف في القرن العشرين،
سيرى فيه "رجلَ كلِّ العصور" لو كانت قوّة العضلات ، هى
وسيلته إلى حَمَل الناس على ما يرجوا لهم من نعمة .. وما
يبشّر به من مبادئ العدل ، والإخاء والرحمة . . ؟ ؟ ؟

هل رأينا ، أو سمعنا أحدًا يصف : الإسكندر ، أو
جانكيز خان ، أو يوليوس قيصر ، أو نابليون ، أو هتلر ، بأنه
"رجل كل العصور" . . ؟ ؟ ؟

ما كان ذلك ليكون ..

فالقوّة الغاشمة لا يمكن لها بحالٍ أن تهَبَ الدنيا "رجل
العصور" ، بل ولا رجلَ عصرٍ واحد .. إنّما تقدّر العظمةُ
وحدها على ذلك .. عظمة الشخص .. وعظمة المبادئ ..
وعظمة الغايات .. وقبلها عظمة الوسائل ..!! وكذلك كان
الإنسان العطر ، والفريد الذى ختم الله به رسله وأنبياءه .
الرحمة المهداة ..

المبشّر ، والنذير ..
والسراج المنير ..
ورجل كل العصور !!..

الفصل الثالث

البُشْرِيَّات بَيْنَ يَدَيْهِ

لأنه رسول رب العالمين ، ولأنه المدَّخَر والمذخور ،
ليختتم الله به رسله ، ورسالاته ، ودينه ، فقد كان لابد أن
تقدمه للمستقبل النبوءات الصادقة .. وتُمهّد له المبشرات
المتألّقة !!..

ولقد حكى القرآن الكريم طرفاً من تلك النبوءات .
وذلك حين قال :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ
الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا
عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ .
يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ
الْمُنْكَرِ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾

المنكر . ويحل لهم الطيبات .
ويحرم عليهم الخبائث . ويضع
عنهم إصرهم والأغلال التي
كانت عليهم . فالذين آمنوا
به . وعزّروه . ونصروه .
واتبعوا النور الذي أنزل معه
أولئك هم المفلحون ﴿

سورة الأعراف - الآية ١٥٧

كما نقل إلينا ما قاله "المسيح" عليه صلاة الله وسلامه
لقومه:

﴿ وإذ قال عيسى ابن
مريم يا بني إسرائيل إني رسول
الله إليكم ، مُصدقاً لما بين يدي
من التوراة ، ومُبشراً برسول
يأتى من بعدى اسمه أحمد ﴾ .

سورة الصف - الآية - ٦

كذلك حدثنا القرآن الصدوق الحكيم عن الموثق الذى
أخذه الله على أنبيائه.. وهو بالتالى مُلزم لأمم أولئك الأنبياء..

تلك الأمم التي تشهد بعثة سيدنا "محمد" عليه الصلاة والسلام
وهاهو ذا الموثق العظيم :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ
النَّبِيِّينَ، لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ
كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ، ثُمَّ جَاءَكُمْ
رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ
بِهِ، وَلَتَنْصُرُنَّهُ .. قَالَ: أَلْقَرَرْتُكُمْ
وَأَخَذْتُكُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ
إِصْرِي ؟؟ قَالُوا : أَلْقَرَرْنَا ..
قَالَ: فَاشْهَدُوا ، وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ
الشَّاهِدِينَ.. ﴾.

سورة آل عمران - الآية - ٨١

واضح من تلك الآيات الكريمة ، أن ثمة "نبوءات"
صادقة.. و "مبشرات" واثقة !!

وواضح كذلك أن الذين اشتركوا في بث هذه النبوءات
من الأنبياء والمرسلين - عليهم السلام - قد تركوا لأتباعهم في
كل العصور والأجيال وصاةً خالدة ، بأن يتبعوا هذا الرسول
الكريم القادم ، إذا هم شهدوا مبعثه .. سواء منهم الذين

سُيَاصِرُونَهُ ، أَوِ الَّذِينَ سَيَجِئُونَ بَعْدَ عَصْرِهِ إِلَى أَنْ يَرِثَ
"اللَّهُ" الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ..

وَلَقَدْ اقْتَضَى ذَلِكَ أَنْ تَكُونَ جَمِيعُ الْقَنَوَاتِ مُفْتَحَةً
وَمُوصُولَةً بَيْنَ الرَّسُولِ وَبَيْنَ مَنْ سَبَقُوهُ مِنْ إِخْوَانِهِ - عَلَيْهِمُ
أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى السَّلَامِ ..

وَهَكَذَا وَجَدْنَا الْإِسْلَامَ يَرْفُضُ كُلَّ إِيمَانٍ بِهِ وَرَسُولِهِ
مَا لَمْ يَنْتَظِمِ الْإِيمَانُ بِكَافَةِ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ ، وَبِالْكِتَابِ
وَالْأَدْيَانِ السَّمَاوِيَةِ السَّالِفَةِ ، وَالْمُنْزَلَةِ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ !!
وَفِي الْآيَاتِ الْأُولَيَاتِ مِنَ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ يَنْعَتُ اللَّهُ
سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عِبَادَةُ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ :

﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ،
وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يَنْفِقُونَ .. وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا
أَنْزَلَ - إِلَيْكَ - وَمَا أَنْزَلَ - مِنْ
قَبْلِكَ - وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾

سورة البقرة - الآيات ٣ ، ٤

كَذَلِكَ يَدْعُوهُمْ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى أَنْ يَحْمِلُوا فِي أَفْعَدَتِهِمْ إِيمَانًا
صَادِقًا ، وَوَلَاءً مُطْلَقًا لِهَذِهِ الْقَضِيَّةِ :

﴿قُولُوا : آمَنَّا بِاللَّهِ ، وَمَا
أُنْزِلَ إِلَيْنَا ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَى
إِبْرَاهِيمَ ، وَإِسْمَاعِيلَ ، وَإِسْحَاقَ ،
وَيَعْقُوبَ ، وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ
مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ
مِنْ رَبِّهِمْ .. لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

سورة البقرة الآية - ١٣٦

هناك - إذن - اعتراف مُتبادل بين الرسول "محمد" ﷺ
وبين إخوته السابقين . وبين الإسلام وما سَلَفَ من شرائع
أو (أديان) ..

وهناك - كذلك - عهد مُشترك بين جميع الأمم
والشعوب التي اختصها الله برحمته ، حين أُرسل فيهم وإليهم
من يزكيهم ، ويهديهم إلى صراط الله العلى الحميد من
الأنبياء والمرسلين ..

ولقد فازت "الأمة المسلمة" فى كل عصورها وأجيالها
بشرف الحفاظ على هذا العهد ، والوفاء به ، والولاء له ..
فلا تجحد "مسلمًا" واحدًا ، خلال الأربعة عشر قرنًا التي

عاشها الإسلام منذ أهلٍّ وبزغ ..

ولن تجد "مسلمًا" واحدًا ، فيما سيأتي من قُرون ،
وأزمنة ، وأجيال ، يكفر برسول واحد من المرسلين السابقين ،
أو يكفر بكتاب مُنزل واحد من الكتب السماوية التى بقيت
بلا تزُيد أو تحريف .. مادام قد آمن بالله ربًّا ، وبالإسلام
دينًا ، وبمحمد ﷺ رسولاً ..

وحين أُسأل عن أعظم خصائص الإسلام ، أجيب : إنها
"عالميته" !!

فهو "عالمى" النزعة ، والاتجاه ، والمنهج ..

شهد له بذلك ربه ومُنزله حين نادى رسوله :

﴿ وما أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً
لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

وحين حمّله مسؤولية شُمُول الدعوة ، وعالمية البلاغ ،
قال :

﴿ قل : يا أيها الناس ،
إني رسول الله اليكم جميعًا ﴾

سورة الأعراف - الآية ١٥٨

وبينما قال ربنا سبحانه عن الرسل السابقين :

﴿ ولقد بعثنا في كل
أمة رسولاً ﴾

سورة النحل - الآية ٣٦

نجدّه يقول للرسول "محمد" عليه الصلاة والسلام :

﴿ وأرسلناك للناس رسولاً ﴾

سورة النساء - الآية ٧٩

وحين تحدث الله في كتابه الكريم عن الأمم ومُرسلها

قال : ﴿ وإن من أمة إلاّ خلا فيها نذير ﴾

سورة فاطر - الآية ٢٤

وهذا مصداق لما سبق أن ذكرنا من قول الرسول عليه

الصلاة والسلام :

"ما من نبي إلاّ بُعث لقومه

خاصة. إلاّ أنا.. بعثت إلى

الأبيض، والأحمر، والأسود".

وكثيراً ما كان - عليه الصلاة والسلام - يقول : "أنا

دعوة أبي إبراهيم" .. مشيراً بهذا إلى موقف الخليل حين فرغ

ومعه ابنه "إسماعيل" عليهما السلام - من بناء الكعبة ، إذ اتجه

إلى الله في ضراعة واثقة ، تقيّة ، ودعا :

﴿ربنا وابْعَثْ فِيهِمْ
رسولا منهم يتلو عليهم آياتك،
وَيُعَلِّمُهُم الكتاب والحكمة،
ويزكيهم إِنَّكَ أَنْتَ العزيز
الحكيم﴾

سورة البقرة - الآية ١٢٩

والمقصود ذرية إسماعيل.

ولقد تقبل الله ضراسته واستجاب دعاءه .. وسارع إليه
ببُشراه إِنَّه - سبحانه - قد سمع وأجاب !! كما سارع إليه بما
أخذ على نفسه - جل جلاله - من عهد أن يحقق لخليله "سيدنا
إبراهيم" ما يرجو ويتمنى ..

"والعهد القديم" من الكتاب المقدس ، هو الذى ينقل
إلينا هذا الوعد ، وذلك العهد فى هذه الفقرة من سفر
التكوين :

"وقال الرب لإبراهيم - يعنى
إبراهيم - اذهب من أرضك،
ومن عشيرتك ، ومن بيت
أبيك إلى الأرض التى أُرِيكَ،

فأجعلك أمة عظيمة.. وأبارك،
وأعظم اسمك، وتكون بركة،
وأبارك مباركك، ولا عُنك
أُلعنه .. وتبارك فيك جميع
قبائل الأرض" !!..

سفر التكوين - الإصحاح الثاني عشر ٣، ٢

من هي قبائل الأرض وأقوامها الذين بُورك بينهم "سيدنا
إبراهيم" عليه السلام . . ؟ ؟

مَن - غير المسلمين - يُصلون عليه ويسلمون ، ويباركون
اسمه وذكراه في كل صلواتهم آناء الليل ، وأطراف النهار،
قائلين :

"اللهم صلّ على محمد
وعلى آل محمدٍ كما
صليت على إبراهيم وعلى
آل إبراهيم .
"وبارك على محمدٍ، وعلى
آل محمد ، كما باركت على
إبراهيم، وعلى آل إبراهيم،

إنك حميد مجيد" ؟ !

إن "النُبوَّة" التى أسلفناها، والمنقولة عن سِفَر من أسفار التوراة ، هو "سفر التكوين" لتصلُّنا بنبوءات أُخر ، زحرت بها التوراة والإنجيل ، حتى فى النسخ القائمة اليوم .. ولقد تتبع طرفاً من هذه النُبوءات ، وتناولها بتعليقه الذكى المضىء ، والفيلسوف الهندى المسلم "مولانا محمد على" فى كتابه القيم : "حياة محمد ، ورسائله" ترجمة الأستاذ "منير البعلبكي" وإنه ليسعدنى ، ويسعد القراء معى أن نصحبه فى حديثه هذا .

"إن الكتب السماوية كلها تشتمل على نُبوءات عن مجىء الرسول .. وإنه ل يبدو أن العناية الإلهية شاءت أن تصهر الشرائع الدينية المختلفة فى عقد واحد ، ينتظمها كلها .. وذلك كى تصهر الإنسانية فى أخوة كونية ، فأرسلت - أى العناية الإلهية - نبياً ورسولاً يحمل رسالة إلى الجنس البشرى كله ..

"ولقد احتفظ العهد القديم والعهد الجديد - هذان الكتابان المقدَّسان - على نحو سليم بعدد من النبوءات عن مجىء الرسول "محمد" عليه صلاة الله وسلامه .. ففى سفر

التكوين يقول الله لخليله إبراهيم :

"وأما إسماعيل، فقد سمعتُ لك
فيه.. ها أنا ذا، أباركه، وأثمره،
وأكثره كثيرًا جدًا.. اثنى عشر
رئيسًا يلد، وأجعله أمة كبيرة "

سفر التكوين الإصحاح السابع عشر ٢٠

"فهنا أعطى الوعد الخاص بإسماعيل وذريته بالطريقة
نفسها التى أعطى الوعد الخاص بإبراهيم وذريته ..
"ثم هناك نبوءة أخرى من خلال الوعد الذى وعد الله
إبراهيم إياه .. ها هو ذا ! :

"وأقيم عهدى بينى وبينك،
وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم
عهدًا أبديًا، لأكون إلهًا لك
ولنسلك من بعدك.. وأعطى لك،
ولنسلك من بعدك أرض غربتك
كل أرض كنعان ملكًا أبدًا لك،
وأكون إلههم"

سفر التكوين الإصحاح ١٧ : ٧ ، ٨

"وهذه علامة منظورة ، تُرى من هم الآن "الورثة
الحقيقيون" للوعد الالهى لإبراهيم عليه السلام .
"فمن الحقائق التاريخية أنه ما إن جاء الرسول "محمد"
حتى دخلت "أرض الميعاد" فى حوزة المسلمين الذين بسطوا
سلطانهم عليها طوال القرون "الأربعة عشر الماضية" .. ولقد
كان الغرض الأساسى للحروب الصليبية انتزاع "أرض الميعاد"
هذه من أيدي المسلمين .. ولا ريب فى أنها ضاعت من أيدي
المسلمين مؤقتاً "بعض الوقت" ولكنها سرعان ما أُعيدت بعد
فترة وجيزة .. وإذا كان قد قُدِّر لها أن تضيع منهم فيما بعد .
فلن يستمر ذلك طويلاً .. وفاء بالوعد الذى وعده الله
إبراهيم ..

"أمّا النبوءة التالية المعلنة بحىء الرسول الكريم "محمد"
فقد جاءت على لسان "موسى" عليه السلام :
"أقيم لهم نبياً من وسط إخوتهم
مثلك، وأجعل كلامى فى فمه ..
فيكلمهم بكل ما أوصيه به"

سفر تثنية الاشراع الإصحاح ١٨ : ١٨

"وهذا واضح وضوح الشمس فى رائعة النهار !! فإن أياً

من الأنبياء الإسرائيليين . الذين جاءوا بعد "موسى" فى تعاقب
متطاوّل ، حتى مجيء "يسوع" . لم يدع أنه النبى الموعود
بهذه النبوءة .. ولأسباب جليّة لم يكن فى ميسور خلفاء
"موسى" عليه السلام أن يكونوا مثله ، لأنهم ما جاءوا إلاّ
لتنفيذ شريعته ليس غير .. وكان أمر "النبوءة" معروفاً لدى
الخاصة والعامة من اليهود الذين انتظروا جيلاً بعد جيل ،
ظهور نبى مثل "موسى" ويؤيدون هذا تأييداً كافياً ذلك
الحديث الذى دار بين "يوحنا المعمدان" ، وأولئك الذين
وفدوا عليه ليسألوه : كما يروى سفر يوحنا :

"من أنت . . ؟ ؟

"المسيح أنت ؟ ؟

"قال : لست أنا ..

"إيليا أنت ..

"قال : لست أنا ..

"ذلك النبى أنت ؟ ؟

"فأجاب : لا ...!!

سفر يوحنا الإصحاح الأول : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١

"وهذا يظهر فى يقين ان اليهود كانوا يترقبون ظهور

ثلاثة أنبياء مختلفين : أولهم "إيليا" الذى اعتقدوا أنه سيظهر بشخصيته كرهة أخرى .. وثانيهم "المسيح" وثالثهم "نبي" ذو شهرة عظيمة إلى درجة رأوا معها أنه من غير الضرورة نعتة بأى وصف مُميز ..!! لقد كان قولهم : "ذلك النبي" كافيًا للدلالة على من يعنون .. وهكذا كان مدى الشيوع والذُيوع للذين حظيت بهما-بين اليهود- نبوءة "موسى" فيما يتصل فى ظهور نبي مثله .

"ولقد تحققت هذه النبوءات فى شخصي" يسوع ، ويوحنا" .. فقد أعلن أولهما أنه : "المسيح" وأعلن ثانيهما أنه بُعث فى روح "إيليا" .. ولم يدّع أحد منهما أنه النبي الموعود المماثل لموسى .. بل ولم يعتبرهما أحد من الذين آمنوا بهما - ذلك النبي الموعود ..!!

"وهكذا ظلت نبوءة سيفر" تنبئية الاشتراع" حول نبي مثل موسى "غير محققة بقدر ما يتعلق الأمر بالإسرائيليين .
"وإذا قلبنا صفحات تاريخ العالم لم نجد أى نبي غير "محمد" عليه الصلاة والسلام أعلن أنه النبي الذى تنبأ "موسى" بظهوره ..

"والوقائع تؤيد هذا التفسير ، فقد كان "موسى"

صاحب شريعة .. وكذلك كان "محمد" صلوات الله وسلامه
عليهما .. وليس بين الأنبياء الإسرائيليين الذين خلفوا
"موسى" نبي واحد جاء بشريعة جديدة .. ومن هنا ، كان
الرسول الكريم "محمد" بوصفه النبي الوحيد الذى أعطى
الناس شريعة ، هو وحده المماثل لموسى .. يُصدق هذا القول
الله سبحانه فى قرآنه الكريم :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا
شَاهِدًا عَلَيْكُمْ ، كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى
فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾

سورة المزمل - الآية : ١٥

"إن عبارة (أقيم لهم رسولاً من بين إخوانهم) التى
جاءت على لسان موسى عليه السلام ، تُلقى ضوءاً جديداً
على هذه الحقيقة .. إذ معنى ذلك أن النبي الموعود لن يجرى
من بين الإسرائيليين أنفسهم .. بل من بين "إخوانهم" من ذرية
"إسماعيل" .

"وهكذا ، فإن نبوءة "سفر تثنية الاشتراع" السالفة ،
تُشير بما لا يحتمل اللبس إلى الرسول الكريم "محمد" ﷺ الذى
وجدت فيه مصداقها . . . !!!

"وثمة نبوءة أخرى ، نقع عليها فى تعبيرات لا تقل وضوحًا
وجلاء .. وهى موجودة فى نفس السفر "تثنية الاشتراع"
حيث يقول :

"جاء الربُّ من سيناء ..
وأشرق لهم من شاعير..وتلألأ من
جبل فاران .. وأتى من ربوات
القدس" ..

فالجىء من "سيناء" يشير إلى ظهور "موسى" .. والإتيان
من "ربوات القدس" يشير إلى ظهور "يسوع" ، إذ تلقى هذان
النبيان النداء الإلهى فى هذين الموضعين .. أما "فاران فمن
المسلم به أنها الاسم القديم لأرض" الحجاز حيث ظهر
"محمد" عليه الصلاة والسلام من بين حفدة "إسماعيل" !
"وليس ذلك فحسب . بل إن ثمة نبوءة رابعة ، تنصُّ
صراحة على أن أرض النبى الموعود ، هى بلاد العرب .

إذ يقول "سفر أشعيا" !

"وحىّ من جهة بلاد العرب
فى الوعر من بلاد العرب تبيتين
يا قوافل الدّانين ..

"هَاتُوا ماءً لِمَلَاقَةِ الْعِطْشَانِ ،

يَا سُكَّانَ أَرْضِ تِيْمَاءِ ..

"وَأَفْوَ الْهَارِبَ بِخَبْزِهِ ، فَإِنَّهُمْ

مِنْ أَمَامِ السُّيُوفِ قَدْ هَرَبُوا .. مِنْ

أَمَامِ السُّيُوفِ الْمَسْلُوكِ ، وَمِنْ أَمَامِ

الْقُوسِ الْمَشْدُودَةِ ، وَمِنْ أَمَامِ شِدَّةِ

الْحَرْبِ " .

سفر إشعيا الإصحاح ٢١، ١٣، ١٤، ١٥

"إِنَّ لَفْظَةَ .. بِلَادِ الْعَرَبِ .. قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ ذَاتِ

مَغْزًى كَافٍ . ثُمَّ أَنَّ الْإِشَارَةَ إِلَى مَنْ هَاجَرَ ، تُلْقَى ضَوْءًا

جَدِيدًا عَلَى الْمَقْصُودِ بِالنَّبُوءَةِ .. فَتَارِيخُ الْعَالَمِ لَمْ يُدَوِّنْ غَيْرَ

هَجْرَةِ وَاحِدَةٍ قُدِّرَ لَهَا أَنْ تَكْتَسِبَ أَهْمِيَّةَ الْحَدِثِ الْخَاسِمِ ..

وَهِيَ هَجْرَةُ الرَّسُولِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ .. حَيْثُ بَدَأَ التَّقْوِيمَ

الْإِسْلَامِي ، وَحَيْثُ اسْتَهْلَ فَصْلَ جَدِيدٍ فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ ..

أَوْ عَلَى الْأَصَحِّ فِي حَضَارَةِ الْعَالَمِ كُلِّهِ !! ..

"وَعَبَثًا تُقَلِّبُ صَفَحَاتِ التَّارِيخِ التَّمَاثُلَ لِهَجْرَةِ أُخْرَى ،

تَمَحَّصْتَ عَنْ نَتَائِجٍ فِي مِثْلِ هَذِهِ الْخَطُورَةِ ، وَبَعْدَ الْأَثَرِ .. فَإِذَا

أَضْفَنَّا إِلَى هَذَا نَصِ النَّبِوءَةِ الصَّرِيحِ عَلَى "بِلَادِ الْعَرَبِ"

بوصفها مسقطاً لرأس النبی الموعود ، لوقفنا أمام دليل لاتزاع
فيه على أن النبوءة المذكورة تشير إلى الرسول "محمد" صلى
الله عليه وسلم !!..

"وهناك نبوءات أخرى كثيرة أطلقها الأنبياء اليهود مثل
داود ، وسليمان ، وحقّاي وغيرهم . ولكننا رغبة في
الإيجاز ، سنختار واحدة منها ، هي التي أطلقها آخر الأنبياء
الإسرائيليين ، وهو "المسيح" حيث يقول :

"إن كنتم تحبونني ، فاحفظوا
وصاياي.. وأنا أطلب من الآب ،
فيعطيكُم "مُعزّيًا" آخر، ليملك
معكم إلى الأبد... رُوح الحق الذي
لا يستطيع العالم أن يقبله ، لأنه
لا يراه ولا يعرفه "

سفر يوحنا الإصحاح ١٤، ١٥، ١٦، ١٧

ثم تقول النبوءة :

"وأما المُعزّي، الروح المقدسة
الذي سيرسله "الآب" باسمي، فهو
يعلمكم كل شيء . ويذكركم

بكل ما قلته لكم" .

وفى موضع آخر فى نفس السفر المذكور تقول النبوة
على لسان السيد المسيح :

"إن لى أموراً كثيرة أيضاً،
لأقول لكم.. ولكن لا تستطيعون
أن تحتموا الآن .. وأما حين يأتى
ذاك.. روح الحق.. فهو يرشدكم
إلى جميع الحق" !!

سفر يوحنا - الإصحاح ١٦، ١٢، ١٣

"هذه الكلمات المنبئة ، تُبشر فى صراحة كاملة بمجىء
نبي آخر بعد "يسوع" عليه السلام ..

"ولقد أرهق اللاهوتيون النصارى أنفسهم ولا يزالون

ابتغاء العدول بها عن قصدها بحيث تطبق على "الروح

القدس" ؟؟.. وهذا منهم يشكل استنتاجاً غير صحيح .. إذ

أن للنبوة بقية يقول فيها "السيد المسيح" : أقول لكم الحق:

إنه خير لكم أن أنطلق ، لأنه إن لم أنطلق لا يأتىكم "المُعزى"

والعهد الجديد يذكر أن "يوحنا" كان مُفعماً بالروح القدس،

ويذكر أن "المسيح" تلقى الروح القدس على شكل حمامة ..

"وإذن ، فلمن تُشير هذه الكلمات : إن لم أنطلق ،
لا يأتىكم المعزى . . ؟ ؟

"إنها قطعاً لا تُشير إلى "الروح القدس" إذ من التجديف ،
أو يكاد ، الذهاب إلى أن "يسوع" لم يكن مُزوداً بروح
القدس !!

"ولاريب فى أن كلمتى "الروح القدس" اللتين وردتا فى
النُبوّة ، إنما أُريد بهما أن تُشير إلى أن النبى المنتظر والموعود
سيكون متحدًا مع "الروح المقدسة" .

"وقول النُبوّة عن الرسول القادم "ليمكث معكم إلى
الأبد" يدلُّ على أنه لن يكون بعد النبى الموعود نبى آخر
جديد . . !!

"وهذا هو ما يقوله القرآن الكريم عن "الرسول محمد"

﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ
مِّن رِّجَالِكُمْ ، وَلَكِن رَّسُولَ
اللَّهِ ، وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكَانَ اللَّهُ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ .

سورة الأحزاب - الآية : ٤٠

"وهذا أيضًا ما يقوله "القرآن الكريم" عن رسالة

"النبي محمد" عليه صلاة ربنا وسلامه :

﴿اليومَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ،
وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي، وَرَضِيتُ
لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِيناً﴾

سورة المائدة - الآية : ٣

"ثم إن النبي الموعود تصفه النبوءة بأنه "رُوح الحق"
والقرآن المنزل على "محمد" يزيه بقوله الكريم : ﴿قل
جاء الحق﴾ .. وهكذا ، فإن دعوات "إبراهيم ، وإسماعيل"
ونُبوءات "موسى وعيسى" وغيرهما ، قد تحققت فى شخص
الرسول الكريم "محمد" عليه الصلاة والسلام إلى أبد
الأبدين..!!"

إذن لم تكن شهادات الكبار من مفكرى أوروبا فى
القرنين الأخيرين ، الشهادات التى سقنا فى فصلٍ سابقٍ طرفاً
منها .. أقول : إنها لم تكن وحدها الإشارات الضوئية على
طريق الذين عرفوا ، والذين سيعرفون عظمة رسولنا الكريم ،
وعظمة دينه ورسالته ودعوته !!

بل كانت هناك ، قبل قرونٍ مديدة وكثيرة أصواتٌ حق،
ونداءات صدق تهتف بهذا النبي البشير ، والنذير ، والسراج

المنير تُنادى أيامه ، وترفع أعلامه !!..
كانت هناك دعوات "إبراهيم واسماعيل" ونُبوءاتهما..
وكانت هناك نبوءات "موسى وعيسى" .. وهى جميعًا تلقَّوها
عن الله الذى يصطفى من رُسله من يشاء.
هى - إِذْنُ - كلمات الله .. فهل وعائها وحفظها
وامتثلها ، أتباع الرسولين الكريمين ؟ ؟ أم ارتابوا . فهم فى
ريهم يتردّدون ؟ ؟
ألا إنَّ "المسيح عيسى بن مريم - عليهما السلام - يُنادى
هؤلاء وأولئك :
"طوبى للذين يسمعون كلام الله ، ويحفظونه" !!..

الفصل الرابع

الرجل الكامن فى الطفل

ذات يوم ، وهو نائم تحت ظل شجرة وحيدة و يتيمة ..
أقبل عليه أطفال من لدانه و اترابه ، يدعونه بعد أن أيقظوه من
مرقده إلى المسير معهم للتفرج على زامر هناك فى شارع من
شوارع مكة . يُغنى على مزماره غناء يطرب له الولدان ،
وبدلاً من أن يهش الطفل للنبا السعيد ، والدعوة المبهجة ، هز
رأسه فى تأبُّ وإعراض ، وقال لهم : "أنا لم أخلق لهذا" !!!..
ولعل إجابته هذه كانت نتيجة تجربة سالفة له .. فذات
ليلة أو ذات يوم ذهب يسعى إلى سامر ، فيه الناس يسمرون..
لكنه لم يكذب يبلغه ويأخذ مكانه بين المتحلقين ، حتى راح
فى نوم عميق ، استيقظ منه بعد حين ليجد المكان الذى كان

غاصًا ومكتظًا قد خلا من رواده ، والسُّمار قد رحلوا ..
وآب إلى دار عمه دون أن يسمع ما سمع الآخرون من زمر
ولهو ..!!

تُرى هل طوَّف "الطفل" بخواطره حول هذا الذى
حدث له ..؟ وهل استنتج منه أمرًا ..؟

وهل كان المعنى الذى التمع فى خاطره ، ثاويًا أمام
موقفه الراض لرجبة أرابه ، ووراء اعتذاره الرقيق الذى عبّر
عنه بكلماته التى كانت "رجالاً" وذلك حين قال : "أنا لم
أخلق لهذا " ..؟!

يبدو إن ذلك كان كذلك ..

فسنلتقى به ، بعد أن اختاره الله رسولا ، يستدعى من
ذكريات طفولته ذلك المشهد الأول . بل ويُفسّر بأن الله
سبحانه هو الذى ألقى عليه النوم ، حتى لا يقتحم سمعه ما
كان ثمة من غناء ماجن أو زمر لاهٍ . لم تُخلق له أذناه ، كانتا
على موعد مع صوت آخر ، وكلمات آخر ، سيتنزل بها من
لدى حكيم عليم شيخ الملائكة "جبريل الأمين" عليه
السلام ..!!

* * *

تحت إحساس عجيب ، ونادر النظر ، قال الطفل المبارك كلماته المرهضة والمضاعة بنور غيب لا يعرفه ولا يراه .. وان كان يُحسه على نحو جلى .. قال كلمته المشرقة بنور ربها : "أنا لم أخلق لهذا" ..؟؟

وقبل هذه الطفولة كان ميلاد ..

ولن نقف طويلاً أمام ما نقلته الأنباء - وربما الأساطير أيضاً - عن الخوارق التي صاحبت مولده .. فقد جرت عادة الناس ، ولا سيما رُواة أخبار العظماء من البشر أن يملأوا الفراغ المحيط بمهد الوليد بالكثير الكاثر من الخوارق والحكايات ، ظانين أنهم بهذا يرفعون من قدر هذا العظيم أو ذاك .. وأنهم بهذا يُبوتونه مكاناً علياً .. مكان الذى لم يجىء بقية الناس ، بل جاء فى موكب حافل من مقادير الله الذى اختاره على علم واجتباؤه واصطفاه ..!!

وأمام "محمد بن عبد الله" لانبجس إنساناً تحتاج عظمته إلى التماس خوارق تُزكيها ..

فغداً ، حين تكبر شخصية "الطفل" وتنمو .. ويتسلم من عَيْن الله - وكلتا يديه عَيْن - راية الرسالة والدعوة ، سنجد أنفسنا ، إن معجزة "محمد" صلى الله عليه وسلم بعد القرآن ،

هى "محمد ذاته" !!.

وإذن ، فلا حاجة به إلى عُطُور يُضَمَّخ بها ميلاده ..
فهو نفسه العطر ، وهو العبير أطيّب العبير !!..
بيد أن هناك حدثًا جليلاً قد زامن مولده .. وهو جدير
أن يُحسب فى عداد الخوارق من غير تكلف أو اعتساف ..
ونحن نذكره ، ونقضى معه بعض الوقت . لا لشيء إلا لأنه
ارتبط بحياة هذا الوليد المبارك - حتى لقد صار تاريخ مولده
مقترنًا بذلك الحدث .. فيقول التاريخ دائمًا : "إنه وُلد عام
الفيل" ..

ولعام الفيل قصة تُروى ، باعتبارها - تاريخًا - صادقًا ،
وليست أسطورة تمقها الخيال ..

والواقعة - كما يرويها "ابن هشام" تلخص فى أن
"أبرهة الأشرم" الذى كان واليًا على اليمن لنجاشي الحبشة
أراد أن يصرف الناس عن الكعبة ، فبنى كنيسة فى أجمل زينة ،
وأروع معمار . ثم كتب إل "النجاشي" يقول له : "إنى قد
بنيت لله أيها الملك كنيسة ، لم يُبن مثلها للملك قبلك ..
ولست بمُنْتَهٍ حتى أصرف إليها حجيج العرب !!..

وترامت أنباء هذه الكنيسة ، وكتاب أبرهة إلى

النجاحشى، هذا الكتاب الذى فضح نوايا أبرهة الخبيثة والضالة .. ترامت هذه الأنباء إلى العرب فى "مكة" .. وأسرَّ واحد من أهلها أمرًا .. ورحل إلى "صنعاء" ليُمضى ما أسرَّ ، ويُنجز مانوى !!

وذاث يوم ، دخل راعى الكنيسة التى بُنيت من الرخام المجزَّع ، والحجارة المنقوشة بالذهب .. دخل كنيسة أبرهة هذه .. فإذا منخراه يمتلآن برائحة كريهة إلى حد لا يُطاق . ولا بد أنه أغلق منخريه تمامًا ، حين راح يُجول فى رحاب الكنيسة باحثًا عن مصدر هذه الرائحة الخبيثة .. وأخيرًا وجدها ..

وضرب صدره بيده ، وهو يقول : لقد فعلها المكِّيُّ اللعين الذى تركته يبيت هنا الليلة ، رافة به واشفاقًا عليه .. ولم يشأ أن يزيل الخبث المكنوم حتى يُطلع "أبرهة" على هذا الحدث ..!!

وحين علم أبرهة أن الفاعل رجل من عرب مكة جاء ليقدم إليه هذه الهدية المتواضعة "!!" جزاءً وفاقًا على نواياه العدوانية تجاه الكعبة ، وتجاه بيت الله الحرام .. حين علم بهذا ، قرر فى لحظة غضب وسفاهة أن يغزو

"مكة" ويهدم كعبتها وبيتها الحرام !!

وفى طريقه وجيشه معه إلى مكة خرجت له قبائل من العرب، كانت تقيم بأرض خثعم ، لتردّه عن الكعبة والبيت الحرام، فهزمها ، وأسر شيخها وقائدها ..

وعند وصوله الطائف خرج له رجال "ثقيف" وعانقوه القتال .. لكنه هزمهم ، وانطلق كالإعصار نحو "مكة" .. وعند مشارفها أرسل مبعوثًا حمّله رسالة إلى سيد البلد وشريفها، يخبره فيها أنه لم يأتِ لحرب الناس .. إنما جاء لهدم هذا البيت .. وليس به حاجة إلى دمائهم إذا لم يعرضوا له بحرب !!

وكان قد سبق رسوله هذا ، جماعة من فرسان جيشه حيث انتهبوا ما وجدوا من مال وإبل .. أصابوا فيها مثنى بعير لسيد قريش "عبد المطلب بن هاشم" الذى دعاه أبرهة للقائه .. ولم يكذ يراه حتى أجّله ، وأعظمه ، وأكرمه .. وسأله عن طريق ترجمانه أن يطلب ما يشاء !!

وأجاب سيد قريش : إن حاجته أن يرّد الملك للناس ما انتهبه جنوده ، ومنها مائتا بعير له .

وحين رأى دهش "أبرهة" من اهتمامه بأبله وإبل

الآخرين، دون أن يذكر البيت الحرام بكلمة، أطفأ دهشته هذه
بكلماته المأثورة : "أما الأبل ، فهي لى .. وأما البيت، فله رب
يمنعه ويحميه" !!..

ورجع "عبد المطلب" إلى قومه ، داعياً إياهم أن يخرجوا
من "مكة" وأن يتحرزوا فى شعف الجبال والشعاب .. ثم
مضى إلى الكعبة وأمسك بحلقة بابها ، وراح ينادى ويُناجى
ربه الذى كان "الحنفاء" يبشرون به ويهجرون الأصنام إليه،
ويقول :

لاهُمَّ إِنْ الْعَبْدَ يَمْنَعُ

رَحْلَهُ فَاَمْنَعُ رَحَالَكَ

وَانْصِرْ عَلَى آلِ الصَّلِيبِ

وَعَابِدِيهِ الْيَوْمَ آلَكَ

لَا يَغْلِبُنَّ صُلَيْبُهُمْ

وَمَحَالُهُمْ أَبَدًا مَحَالَكَ

إِنْ كُنْتَ تَارِكُهُمْ وَقَبْلَتُنَا

فَأَمْرُ مَا بَدَا لَكَ

قال ذلك "عبد المطلب" سيد قريش ، وجدُّ "محمد" ﷺ

الذى ستشهد هذه الأيام . ميلاده .. ثم انطلق ومن معه من

قريش إلى شعف الجبال مُتحرّزين فيها ، ومنتظرين أمر الله
فيهم وفي بيته الحرام ، وفي هذا الغازى العنيد والأثيم !!..
كان يتقدم جيش أبرهة فيل ضخمة يُشير الرعب والفزع
فى الأنفس والعزمات ..

وما لبث الفيل أن برك فى هجوع وخشوع ، وراحوا
يضربونه فى عُنف لكى ينهض فأبى .. وأدخلوا المحاجن فى
مراقه وأسفل بطنه وهو يأبى !!.. ثم أداروا رأسه صوب
اليمن فقام يُهرول .. ووجهوه ناحية الشام فانطلق مهرولاً ..
ثم ناحية المشرق فكان أسرع هرولة .. ثم عادوا به صوب
البيت الحرام فبرك وأخلد إلى الأرض وكأغما شُدت قوائمه
إليها بسلاسل مُوثقة غلاظ ..

وفجأة ملأ الفضاء فوق رعوسهم بأفواج من طير أباييل،
ترميهم بحجارة من سجيل .. لا تصيب منهم أحداً إلا هلك،
وسقط صريعاً فوق التراب والرمال !!

وولّوا هاريين يتدرون الطريق التى جاءوا
منها ..

وأمامهم قائدهم التعس - أبرهة الأشرم - الذى لم يكذب يبلغ
"صنعاء" حتى نفق بعد أيام !!

كانت الحجارة فى مثل حجم حبات الحمص والعُص،
 خيبت فألهم . وأطاشت سهامهم ، وحوّلهم إلى صرعى
 ومرضى هالكين .

لماذا أفضنا فى ذكر هذه الواقعة ؟ ؟

لأنها الإرهاص "الذى نختاره من بين ما قيل من
 إرهاصات أخرى كثير ..

ففيها من الصدق التاريخي ما يشجّب كل إعراض عنها،
 لاسيما ، وقد توجّ القرآن العظيم هذا الصدق التاريخي بإحدى
 سورة القصار ، والمسمّاة "سورة الفيل" .. وذلك حين
 اصطفى الله "عمداً" ﷺ رسولا ، وراح يُصيره على عنت
 قومه وشنآنهم ، مذكرا إياهُ بنعمته السابقة على أهله ..
 وينقمته الماحقة للغزاة الآثمين ، فقال سبحانه فى كتابه المنزل
 عليه :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ
 بِأَصْحَابِ الْفِيلِ .. ؟ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ
 فِي تَضْلِيلٍ .. وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا
 أَبَابِيلَ .. تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ ..
 فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ ﴾ !!

سورة الفيل

فى شهر المحرم من ذلك العام ، كانت غزوة أبرهة
الفاشلة .

ويشاء الله فيما بعد ، أن يكون "المحرم" بالذات هو
الشهر الذى يستهل به المسلمون عامهم الهجرى المتساوق عبر
العصور والأزمان !!..

وفى ذلك العام أيضا - عام الفيل - استقبل شهر ربيع
الأول ، فى التاسع منه ، وقيل فى الثانى عشر من أيامه الغُرِّ
والذى يوافق فى التاريخ الميلادى العشرين من أبريل عام
خمسمائة وواحد وسبعين .. استقبل - ابن البشرية البار -
وطفلها العظيم !!..

الطفل الذى سيقود طفولته ، الرجل الكامن فيه !!..
الطفل الذى سيقول "الرجل الكامنُ فيه" : أنا لم أخلق لهذا ..
حتى حين يدعوهِ لِدَاتِهِ وأُتراهِ إلى هُو بَرِىء !!..

والطفل الذى لن يجد - حين يفدُ إلى الحياة - أباً ، يُناديه،
فى براءة الأطفال وحاجتهم إلى الحنان ، قائلاً : يا أبى ! !

ذلك أن أباه لقي ربه ، وأمه حامل به .. وبعد ست
سنوات من مولده سيفقد أمه .. تُرى ، هل أراد الله له هذا
الْيُتَمَّ المبكر ليبادر "الرجل الكامن فى الطفل" إلى التجلّى

والظهور والهيمنة . . ؟ ؟

على أيه حال ، فالأخبار الوثيقة عن طُفولته ، تُرينا فيه "رجولة" مبكرة تزدان بما لاعهد للأطفال به - مهما سَمَوْا - من أناة ، وحلم ، وترفع ، واتزان .

ما كان جده "عبد المطلب" البعيد النظر ، والثاقب الفكر ، والحائز لقدر كبير من نور البصيرة ، وشفافية الروح.. ما كان ليحتفى به كل تلك الحفاوة ، لا ليعتزَّ به كل ذلك الاعتزاز ، ولا ليصطحبه إلى حيث يؤم من مجالس السادة والأشراف ، ولسانه يردد - دوماً - فى زهو وشرف عبارته المأثورة : "والله ليكونن لابنى هذا شأن" ..

أقول : ما كان "عبد المطلب" ليهتم بحفيده "محمد" ﷺ كل هذا الاهتمام الذى لم يمنح معشاره أحد من بقية الأحفاد. لولا ما كان يحمل الطفل الحفيد من مخايل النجابة ، وأمائر التفوق ، وملامح مستقبل واعد وعظيم . . ! !

وحين يرحل الجدُّ الحانى عن الدنيا ، وينتقل الطفل إلى دار عمه "أبى طالب" وكفالاته .. نجد العم لا يقل عن الجد الراحل فى افتتانه بشخصية ابن أخيه ، واحترامه "الرجل الكامن فيه" . . ! !

وبنضج هذه الرجولة الكامنة كُمنون الماء فى العود
الأخضر ، والسارية كذلك .. تحول الطفل سريعاً إلى فتىٍّ
يملاً الأعين جماله ، والأفئدة جلاله ..!! فكيف تتصور هذا
الفتى الدَّراج الماجد . . ؟ ؟

لنشاهد الآن الصورة التى رسمها بقلمه "أمير على" العالم
الهندى المسلم فى كتابه القِيم : "روح الإسلام" :

يقول : نستطيع أن نتصور ذلك الفتى بعينيه الحائرتين،
مُطرقاً ، مفكراً ، مهموماً ، وكأنه يستشف حجب الغيب، أو
تفتح له نافذة ضيقة على مهام المستقبل ..

"تصوره ، وهو يروح ويغدو فى رفق بين أفراد عائلة
عمه المتواضعة ، أو يتجه إلى الصحراء ، فيملئ وجهه فى
جمال وجه الطبيعة ..

كان ذلك الفتى رقيق الحاشية .. حلو الشمائل ..
مُرهِف الحس تجاة آلام الناس .

"وكان - ابن الصحراء - هذا ، الطاهر الضمير محبوباً
لدى كل من يتصل بهم .. ولدى عمه على الخصوص . إذ
نشأ بين "أبى طالب" و "محمد" ﷺ ذلك العطف الأبوى
الحميم الذى لم يذكر التاريخ له مثيلاً ..

"لقد شقَّ الملاحكة صدره ، وملأوا بالنور قلبه" ..

كان الفتى المأمول ميمون النقية ، سعيد الطالع ..
سعدت بطالعه وهو رضيع - مرضعته "حليمة السعدية" -
سعدت به سعادة غامرة ، صورتها فى شهادة ناطقة وكلمات
صادقة: ..

وسعدت به قريش ، وهو فتى غرير ونضير .. حين كان
عمه يستسقى به فضل الله وغيث السماء .. ولنصنع لشاهد
عيان رأى أحد تلك المشاهد ، فقال : "قدمت مكة وهم فى
قحط .. فقالت قريش : يا أبا طالب ، أقحط الوادى،
وأجذب العيال ، فهلُمَّ فاستسق لنا ..

"فخرج أبو طالب ومعه غلام . وجهه كأنه شمس تجلت
عنه سحابة قماء .. وحوله أُغَيِّلِمَه .. فأخذه أبو طالب،
وألصق بالكعبة ظهره .. ولاذ بأصبعه الغلام .. وما فى
السماء حينئذ قرعة ..

"وفجأة أقبل السحاب من هنا .. ومن هناك .. حتى
أغدق واغْدُوْدَق .. وانفجر الوادى .. وأخصب النادى
والبادى .."

وهكذا كان الغلام الصغير "محمد" ﷺ كما سيصفه عمه

"أبو طالب" فيما بعد ، فيقول عنه :

وأبيض، يستسقى الغمام بوجهه

ثمّال اليتامى، عصمة للأرامل

* * *

إذا كانت الطفولة - أية طفولة - تحمل فى باطنها
المستسّر ، وخبئها المستكنّ ، وبذور نشوئها ونمائها، ما
يؤمىء إلى مستقبلها عبر تطوّر مُوَاتٍ ومحكوم . فإن طفولة
"محمد" ﷺ ويفاعته ، لم يكونا إلا "طليعة" صادقة ومُشرقة ،
لرجولته الوافدة ، والواعدة .

كما ستكون "رجولته" بشيرًا صادقًا ومتألقًا لرسالته
المقبلة - حيث يصطفى الله من رسله من يشاء - وحيث يَكْمُن
فى "محمد الرجل" - "محمد الرسول" عليه صلوات الله
وسلامه .

* * *

لقد كانت أم "الإسكندر الأكبر" تختصه دائماً بهذه
الدعوة العجيبة : "اللهم ارزق ولدى "حظاً" تُسخر له عقول
الرجال.. ولا ترزقه "عقلاً" يُسخر لحظوظ الرجال !! .
وهى دعوة كما نراها مفرطة فى الأنانية !! ومع هذا

فكأنما صادفت مرة أو مرات باباً مفتوحاً من أبواب السماء.
فقد رُزق ابنها الإسكندر - فعلاً - حظاً سُخرت له عقول
الرجال . . . !!

ولكن ، ماذا تُفيد البشرية من الباحثين عن حظوظهم،
والراكضين وراء طموحهم الشخصي ، ومجدهم المرغوب ؟!
غداً ، يجيء "محمد" ﷺ .. لتجد الحياة فيه حظّها
وعقلها معا .. وتجد فيه دُعاءها المستجاب الذى طالما قرعت
به أبواب السماء ، وألحتْ به على ذى العظمة ، والجلال،
والكبرياء .. كى يُعجل لها بالنتقد الذى سيكون يوم يجيء.
أحلامها ملء يقينه ..

وأشجانها أطياف شجونه ..
وحُلُول مشكلاتها ، مطوِّياتٌ يمينه ... !!

الفصل الخامس

الرسول الكامن في الرجل !!

ما كان يدري ما الكتاب ولا الإيمان ..
ولم يكن اصطفاء الله له ، قد وضع في نفسه ، ولا
استبان له بصورة من صور اليقين أنه مُدَّخِر لرسالة عظمى
سيختتم الله بها الدين والمرسلين .
بيد أنه كان يملك إحساساً عميقاً بأن أمامه دوراً كبيراً
ينتظره على شوق .

ماذا سيكون هذا الدور ؟؟
مصلحاً .. ؟ قائدًا .. ؟ زعيماً .. ؟
ليس يدري بعد .. لكنه يدرك تمامًا أنه لم يخلق لما خُلق
له الكافة من الناس !!

أفلم يقل من قبل وهو طفل صغير لأتراه حين دَعَوْه إلى
 لهُو برىء : "أنا لم أخلق لهذا" . . ؟ !

* * *

لقد مُنِحَ من السَّجَايا الفارحة ، ومن حميد الخصال ، ومن
 رفعة النفس ، وطهر السلوك ، ونقاء الضمير ، ما جعله مَهْوًى
 أفئدة قومه جميعاً ، وموضع احترامهم ، حتى عقدوا له إمارة
 الصدق والأمانة ، فلَقَّبوه : بـ "الصادق الأمين" ... كان
 يسلك سلوك المرسلين ، ذُون ، أو قبل أن يكون واحداً منهم .
 وكانت أيام حياته ، وسنوات عمره نسيجاً من
 النور !! لم يكن يدرى أن ثمة إرادة عليا تحدو خطاه ، وترعى
 مسيرته ، وتقودُه في الطريق الذى يتلقى فى نهايته بما أعدَّته له
 هذه الإرادة من دَوْر يضيء به من جديد ظلمات الحياة !! ..
 لم يكن يرى "الرسول" الكامن فى "الرجُل" .. لكنّ
 وعيه ، وقلبه ، كانا فى حالة "حُضُور" كامل تَجَاة مأساة
 الإنسان !!

ولقد تمثلت هذه المأساة فى الكثير من حماقات الناس ،
 وفى استعباد الأقوياء الضعفاء .. وامْتِهان الأغنياء الفقراء ..
 وفى الأعراف الفاسدة التى كانت تجعل الظلم هو القاعدة ، أما

العدل فشاذ ونشاز .. وفى التقاليد العفنة ، والرؤى الغيبية ،

والجهالات الموروثة ، والسلوك الملتاث . . . ! ! !

وكان أكثر ما يُقلِّقه ويُؤرِّقه ، تلك الصفوف المتحلقة

حول حجارة مرصوفة تُشكل أصناماً ضُمّاً ، وبُكْمًا ، وغمياً

﴿ وَإِنْ يَسْأَلُكَ الذُّبَابُ شَيْئًا ، لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ .. ضَعُفَ

الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ . . . ! ! !

* * *

أين التوحيد الذى هتف به من قرون بعيدة ، وفى هذا

البلد بالذات - مكة - أبو الأنبياء ، وخليل الرحمن "إبراهيم" ..

عليه السلام . . ؟ !

لقد هتف من قديم بالحقيقة التى اتقى بها بعد طول

بحث ، وإمعان نظر ، وقراءة فى السماء . وتقلب بين النجوم

وآياتها .. والكون ومعجزاته .. فهتف فى أعماق قلبه

الذكى: - ﴿ وَجْهَتُ وَجْهِي لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ ، حَنِيفًا ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ .. ولقد تركها

باقية فى عَقِبِهِ ، مُدْوِيَّة فى آفاق الجزيرة الواسعة .. فأين

ذهبت هذه الخنيفية السَّمَّحة ، والمؤمنه ، والموحِّدة . . ؟

هل ضاعت ، أو تاهت فى زحام الوثنية والشرك .. ؟ !

لقد كان هناك هُداة يَزُغون بين الحين والحين ، يُلوِّحون براية "إبراهيم" ويدْحَضُون بأصوات عالية ما كان قد تَغَشَّى حياة قريش فى مكة ، والعرب كلهم فى شبة الجزيرة العربية من وثنية وشرك ..

كان منهم من سبق الرسول الكريم ﷺ بعشرات السنين، وربما بمئاتها .. ومنهم من كان إرهاباً بين يدي فجر الطالع القريب .

فمن الأولين - سُويد بن عامر المصطلقى الذى جهر بعقيدة البعث ، ويوم الجزاء .

وعامر بن الظَّرِب الذى كان يقول لقومه :
"إنى ما رأيت شيئاً قط خلق نفسه .. ولا رأيت موضوعاً إلا مصنوعاً .. ولا جائئاً إلا ذاهباً . ولو كان الذى يميت الناس الداء ، لكان الذى يحييهم الدواء !!..

وكان منهم : المتلمس بن أمية الكنانى الذى كان يتوسط القرشيين عند الكعبة التى جثمت حولها الأصنام ويَصْدَحُ فيهم بقوله : "أطيعونى ترشّدوا .. لقد اتخذتم آلهة شتى .. وإن الله ربكم ، وربُّ ما تعبدون" ..

وكان من بينهم "زهير بن أبى سلمى" يمسك أوراق

الشجيرات التي اهتزت خَضيرة ، بعد كانت هامة يابسة ،
ويقول : - "لولا أن تَسُبَّنِي العرب لآمنت أن الذي أحياك بعد

جَفاف ، سيحيى العظام وهي رَمِيم" !!..

كان هؤلاء ، وآخرون معهم ، يستشرفون الحقيقة،
ويطالعونها ببصائر مُضاءة .. لكنهم لم يظفروا بالاصطفاء ولا
بالرسالة اللذين سيظفر بهما "محمد ﷺ" القادم بعد حين
وكذلك كان من أنماطهم الرفيعة ، نفر كريم ظهروا قبيل
البعثة المحمدية .. بل كان منهم من عاصر الرسول قبل بعثته..
فهذا "أبو قيس بن أنس" اعتزل قريشًا وأصنامها .. واصطنع
له في داره مسجدًا صغيرًا ، لا يدخله طامث ولا جُنُب، وقال:
أعبد رب إبراهيم ..

ولقد عاش حتى بُعث الرسول ﷺ فأسلم معه ..
وكان هناك ثلاثة آخرون من هؤلاء "الحنفاء" انسابت
من أفئدتهم الضارعة كلمات التوحيد كأَنسام الربيع وسط
الهجير الوثني المشبوب !!.. وكأَنما كانوا جميعًا . السابقون
منهم واللاحقون . إِرْهاصًا بالدين المقبل ، وبالرسول القادم
الذى سيعيد راية الحق إلى مكانها ، ويُسوَّى بالوثنية
التراب !!..

(راجع كتابنا "وجاء أبو بكر" ..)

لم يدع أحد من هؤلاء ، ولا من أولئك الرسالة .. فهل

سيدّعها "محمد" حين يجيىء . . ؟ !

* * *

هذا الرجل يملأ "مكة" عبيرُهُ .. وأينما سارت به خطاء

فالخير ، والحق ، والهدى فى ركابه !!

وإنه ليحمل ضميراً يميز به بين الحق والباطل ، وبين

الهدى والضلال .. ضميراً مضاءً ، ومضيئاً يبعث فيه إحساساً

غير مألوف .. إحساساً بنور غير منظور يضئ عقله ، وقلبه ،

ورؤاه . . !!

ويُرسل ذاكرته إلى سنوات العمر السالفة بعيدها وقريبها

. قاصيها ودانيها . فلا يكاد شئ ما يناديه إليه .. إذ أن حياته

الظاهرة والمنظورة ، لم تكن أيامها تنطوى على مشاهد غير

مألوفة فى حدود ما استمسك به ، وعُرف عنه من طُهرٍ

ونُسك ، وأمانة وصدق ..

ولكن لعلّه استأنى وتوقف مع ذلك المشهد بالشام

حين صحب عمه "أبا طالب" فى إحدى رحلاته التجارية ..

ذلك أنه حين نزل الركب بـ "بُصرى" وهى التى تسمى الآن

"حُورَان" .. اتجهوا لزيارة "بحيرى الراهب" الذى كان يتعبد
فى صومعة من صوامع الناسكين ، ويقضى بها حياته فى ظل
ما تُقيِّه على العابدين سَكِينَةُ الإيمان وبُرْدُ اليقين ..

وقريباً من صومعته ، نزلوا تحت شجرة يتفَيَّأون ظلالها
ولعلّ ظلها الظليل لم يتسع لهم جميعاً ، فاستأخر الفتى الجليل
إلى حَوَافِيهِ ، مُفسِّحاً المكان لآبائهِ الكبار ..!! وشيء ما شد
بَصَر "بحيرى الراهب" إلى الغلام الوضىء والمضىء ، فرأى
عجباً.. رأى أغصان الشجرة وقد تَهَصَّرَتْ ، وتدَلَّت على
"محمد" حتى غطته بظلها ..!! ورأى "بحيرى" أن يسبر أغوار
الغلام بعدما رأى من عَجِيب أمره ، فدعا رجال الرِّكَب إلى
وليمة وطعام .. وحين تحلَّقوا حول مائدته افتقد الغلام الأثير
لديه والذى من أجله استضافهم ، حتى يجد فرصة سانحة ليبلِّغ
أمره ، ويستبطن خبره ..!!

هنالك قال لهم : لا أريد أن يتخلف أحد منكم عن
طعامى .. فأجابوه : ما تخلف عنك أحد إلّا غلام ، هو
أحدث القوم سنّاً ، ولقد خَلَفناه فى رحالنا .. قال لا تفعلوا،
ادعوه ليحضر الطعام معكم . . . ! !

وندع "ابن هشام" أو "ابن إسحاق" أوهُمَا معاً يرويان

لنا بقية النبأ العظيم :

".. فقال رجل من الركب : واللات والعزى إن كان
لؤلؤم بنا أن يتخلف ابن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام
من بيننا.. ثم قام إليه واحتضنه ، وأجلسه مع القوم .
"فلما رآه "بحيرى" جعل يلحظه لحظاً شديداً ، وينظر
فى أشياء من جسده ، قد كان يجدها عنده من صفته .. حتى
إذا فرغ القوم من طعامهم ، وتفرقوا ، قام إليه "بحيرى" فقال
له: يا غلام . أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتنى عما
أسألك عنه ؟ وإنما استحلفه "بحيرى" باللات والعزى ، لأنه
سمع القرشيين يحلفون بها ، أو لأنه أراد أن يختبر أعماقه..
فأجابه "محمد" لاتسألنى باللات والعزى ، فوالله ما أبغضتُ
شيئاً قط بغضهما .. ! !

"فقال له - بحيرى - فبالله إلا أخبرتنى عما أسألك عنه ..
فأجابه الغلام : سألنى عما بدا لك "فجعل يسأله عن أشياء من
حاله فى نومه ، وهيمته وأموره .. فجعل يخبره ، فيوافق ذلك
ما عند "بحيرى" من صفته .. ثم نظر إلى ظهره فرأى خاتم
النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التى عنده .. ! !

"فلما فرغ أقبل على عمه "أبى طالب" وسأله : ما هذا

الغلام منك ؟ ؟

قال : ابني

قال بحيرى : ما هو بابنك .. وما ينبغي لهذا الغلام أن

يكون أبوه حيًا .. !!

قال : فإنه ابن أخى ..

قال : فما فعل أبوه ؟ ؟

قال : مات ، وأمه حُبلى به ..

قال بحيرى : صدقت ، فارجع بابن أخيك إلى بلده ..

واحذر عليه "يهود" !! ، فوالله لمن رأوه ، وعرفوا ما

عرفت ليُبغَّنه شرًّا .. فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن

عظيم .. !!!

* * *

نقول : لعلَّ هذا المشهد الذى لا يجد العقل السَّديد أى

حرج فى تقبُّله ، كحقيقة تاريخية ، روى التاريخ منها الكثير ،

ولا تزال نظائرها تصدع وتظهر ، حتى فى عصرنا هذا ،

مُرْهِصَة بقُدوم عظيم ، ومُبشِّرة بمقدم رائد جديد من رُواد

الحياة الأَفْذاذ .. أقول : لعلَّ هذه الواقعة كانت - أكثر من

سواها - تدور عليها خواطر "محمد" الرَّجُل ، فتُوحى إليه بأنه

رُبما كان فى انتظاره مهامٌ جليلة ، ودور عظيم ..
وعلى أية حال ، فقد كان الاحترام الفريد الذى
يحمله له قومه يتنامى كل يوم ، ويدعوه إلى التحدث مع
نفسه فى خلواته .. لاسيما تلك التى كان يقضيها وحيداً
فى غار حراء .. !!!

ولا نحسب أنه ينسى ، أو يتناسى ، ذلك اليوم الذى
يتلألأ كألع ذرة فى تاريخه كرجل .. قبل أن يصبح الرجل
رسولاً !!

فحين كان يجتاز الخامسة والثلاثين من عمره المجدد،
اجتمعت "قريش" لتجديد بناء الكعبة - إذ كانت يومذاك
"رَضْمًا" أى حجارة رصّت بعضها فوق بعض من غير ملاط
يُمسكها .

ولقد تردّد زعماء قريش طويلاً أمام هدمها لبنائها من
جديد . وارتعدت فرائصهم ، وهم يقتربون منها بمعاولهم
ليبدأوا عملية الهدم ، حتى صاح فيهم أمثلهم طريقة،
وأشجعهم رُوحًا ، وتقدم بمعوله بادئاً الهدم ، حتى إذا رأى
الآخرون أنه لم يمسسه سوء تشجعوا ، وتنادوا لإنجاز مهمتهم
الماثلة .. ووصلوا بالبناء إلى موضع الركن ، فاختصموا فيه ..

كل قبيله تريد أن تنفرد برفعه ووضع في مكانه .
واشتَجَرَ النزاع ، واحتدم الصراع .. وذهبت أكثرية
هذه القبائل إلى أحيائها . ثم عادت مُدَجَّجَةً بأسلحتها..
وجاءت قبيلتان بِحَفْنَةٍ مملوءة دُمًا ، وأدخلوا أيديهم فيها
مُتَوَاتِقِينَ ومتعاهدين على أن ينفردوا برفع "الحجر الأسود" إلى
مكانه ، أو فليموتوا دون ذلك .. وُسِّمُوا ذلك اليوم "لَعَقَةُ
الدم" . . . !!

لبث الصراع خمس ليال .. ثم عادوا فاجتمعوا في
المسجد الحرام ، والأزمة لم تُسَوَّ بعد ..
ونَهَضَ بينهم "أبو أمية بن المغيرة" من بنى مخزوم وكان
أكبر القرشيين سِنًا واقترح عليهم أن يُحْكَمُوا أوَّلَ داخل إلى
المسجد . . !!

ومَرَّتْ دقائق صامتة ، والأبصار معلقة بالأبواب .. تُرى
من سيكون هذا الذي ستختاره المقادير ليحسم هذا
الخلاف المنذر والرهيب . . ؟ !

وفجأة أطل "محمد" ﷺ ونوره يسعى بين يديه .. وصاح
المجتمعين "هذا الأمين .. هذا محمد .. قد رضيناه حكمًا" !!
واستنبأهم الخبر ، وكانت قد ترامت إليه من قبل أخبار

النزاع الذى ظل مَشْبُوبًا خمسة أيام .. ولم يفكر طويلاً فيما يصنع . فقد تقدمت بديهته المشرقة بأسعد الحلول ..

دعا المجتمعين أن يأتوه بثوب .. فأتوه بثوب .. فأتى به ، وأخذ "الحجر" يمينه ، فوضعه فى الثوب ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بطرف من أطراف هذا الثوب ، ففعلوا .. ثم قال : ارفعوه إلى أعلى ، فرفعوه .. حتى إذا بلغوا به موضعه ، تناوله بيديه الكريمتين ، وبَوَّاه مكانه ، ثم بنى عليه . . . ! ! !

إذا قلنا إن "الرسول" ﷺ الكامن فى "الرجل" كان بطل هذا الموقف ، لم تكن عن الحقيقة معرضين .. ولكم يسعدنا أن ننقل هنا أبياتاً عذبة من الشعر لشاهد عيان رأى بعينه جلال الموقف وسَنَاه - ذلكم هو "هيرة بن أبى وهب المخزومى" فلنصغ إليه :-

تشاجرت الأحياء فى فصل خُطَّة

جرت بينهم بالنَّحْس من بعد أسعدٍ

تلاقوا بها بالبغض بعد مودةٍ

وأوقد ناراً بينهم شرُّ موقدٍ

فلما رأينا الأمر ، قد جدَّ جدُّه

ولم يبق شىء غير سَلِّ المهند

رضينا ، وقلنا : العدل أول طالع
يجيء من البطحاء من غير موعد
ففاجأنا هذا الأمين محمد
فقلنا : رضينا بالأمين مُحَمَّدٍ !!

* * *

هذا ، رجل كانت الأقدار تعدّه ، وتختصّه بحمل تبعات
الغد .. الغد الذى لن ينتهى بين عَشِيَّةٍ وضحاها . بل سيمتد
ويطول حتى يرث الله الأرض ومن عليها !!..
هذا ، هو "محمد" ﷺ .. يعزف فى إباء وفهم عن
معتقدات قومه الباطلة الهازلة .. ويتردد إلى غار هناك فى
أعماق الجبل ، يُنصِتُ فيه إلى همس الكون كله ، وإلى رُؤاه
المُجَنَّحة فى ملكوت الله .. ويتحدث مع نفسه ومع أشواقه
حديثاً مُعطرًا بالذكاء ، وبالوعى الباطنى ، والإلهى المُضاء..!!
ثم يغادر الغار إلى الحياة الصاخبة ، مُؤدِّيًا فيها دوره
وعمله فى طهر وعناء ..

أكانت أحاسيسه ومشاعره على موعد مع أمرٍ ما ، قد
اقتربت أيامه، وتهيأت أعلامه..؟؟ أكان "الرسول" ﷺ الكامن
فى "الرجل" على وشك أن يُؤدَّن بالظهور ..؟

هل انتهى دور الإعداد والتهيئة ، وأقبل دور الإمداد
والرسالة الخالصة !!.. ها هو ذا يكثُر من اللُجُوء إلى غارهِ
الحبيب .. وكأنه على موعد هناك مع مفاجأة لا يعرف
هَوِيَّتَهَا ، ولا يدرك حَقِيقَتَهَا !!.. إن كل شىء فى داخله
يتوهج ويتألق .. ورُوحُه الطَّلعة تتواثب بين جوانحه .. ويبدو
قلبه الكبير ، وكأنه يريد أن يطير. . . ! ! !

وبسمعه المَرْهَف المتحفز، قد أعرض عن الكلمات
والإشارات ، وأوَّصد جميع نوافذه إلا نافذه واحدة اقترَب منها
وألقى إليها نفسه فى تَجَدُّد وتَبَتُّل ، وإنصات وإصغاء .. لكأنه
على موعد مع كلمات سيتلقاها من الله !!..

* * *

هذا ، فى داخل الغار .
أما خارجه ، فقد بدت الحياة وكأنها تحوَّلت بكل ما
فيها إلى مهرجان حافل ورائع تصدح من خلاله ، وتهتف :
— أهلاً بمقدم الرسول ﷺ !!..

الفصل السادس

وجاء يوم الشروق

ليس من مَهَامُ هذا الكتاب المتابعة التفصيلية لحياة الرسول ﷺ، إذ أن ذلك مهمة المؤرخ وأسفار التاريخ .
وأنا هنا لا أُوَرِّخُ الحياة العظيمة لخاتم الأنبياء وإمام المرسلين .. إنما أحاول في تواضع وحياء أن أقترِب من مطالع النور الماثلة في تألّقات هذه الحياة وفي سُمُوقِها وجلالها ..
أحاول أن أجمع السّذين سيّطالعون هذه الصفحات بالحقيقة المسفرة كضوء النهار .. والهاتفّة بصدق "محمد" وصدق رسالته . والتي تنادى الناس - جميع الناس - بصوت صادع وجهير: إن "محمدًا" رسول الله إلى الناس كافّة .. وإن الصدق والحقيقة لا يجدان نفسيهما، ولا يحققان ذاتيهما، بمثل

ما يجدان وما يُحققان فى نبأ هذا الرسول الصادق
والأمين...!!

* * *

ولقد مررنا سِرَاعًا بِإِرْهَاصَاتِ طُفُولَتِهِ وَيَفَاعَتِهِ ..
وَبِرْجُولَةِ شَبَابِهِ ، وَاسْتَهْلَالَ رَجُولَتِهِ .. حَيْثُ رَأَيْنَا أَيَّامَ الْيَافِعِ ،
وَالشَّابِّ ، وَالرَّجُلِ فِيهِ تَتَنَقَّلُ فِيهَا وَبِهَا أَطْوَارُ حَيَاتِهِ طَاهِرَةٌ
وَبَاهِرَةٌ وَعَظِيمَةٌ .. !! حَيَاةٌ تَحْفَلُ سَرِيرَتِهَا الْمُسْتَكْنَةُ بِرُؤْيَى
طُمُوحِهِ فَاضِلَةٍ ، وَهَيَامٍ بِالْإِسْهَامِ بِلَا حُدُودٍ فِى إِرْجَاعِ الْخَلْقِ
إِلَى الرَّبِّ .. وَوَضْعِ الْآصَارِ وَالْأَوْزَارِ عَنِ الْبَشَرِ الْحَيَارَى
وَالتَّائِهِينَ ، وَالتَّخْبِطِينَ فِى الظُّلُمَاتِ ، تَنْتَظِرُهُمْ فَجَاءَةُ النِّقْمَةِ ،
وَشِقْوَةُ الْمَصِيرِ . . . ! !

مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كَانَ يَأْوِى إِلَى "غَارِ حِرَاءٍ" لِيَتَأَمَّلَ
وَلِيَهْبِئَ سَمْعَهُ ، وَقَلْبَهُ قَبْلَ مَسْمَعِهِ ، لِيَتَلَقَّى الصَّوْتَ الْخَالِدَ ..
صَوْتَ الْحَقِيقَةِ ، وَالْهُدَى ، وَالْخَيْرِ ، الَّذِى لَمْ يَغِبْ عَنْ دُنْيَا
النَّاسِ لَحْظَةً .. يُلْهِمُ الرُّؤَادَ الَّذِينَ يَسِيرُونَ فِى الدُّرُوبِ غَيْرِ
الْمَطْرُوقَةِ . مُمَهِّدِينَ الطَّرِيقَ ، وَغَارِسِينَ الْمَشَاعِلَ أَمَامَ الْبَشَرِيَّةِ
السَّائِرَةِ ، وَالْمَسَافِرَةِ ..

يَبْدُو أَنَّ الصَّوْتَ الْخَالِدَ هَذِهِ الْمَرَّةَ ، كَانَ أَعْمَقَ وَأَوْثَقَ مِنْ

كل ما سمع الرواد من أصوات ، وما تَلَقَّوا من إلهامات .. أجل
- هذه المرة يختلف رنينه ، وتتميز هويته .. فهو "وحى" لا
"إلهام" وهو "جبريل" يتحدث .. وليست "خواطر" تزدّد..
لقد آن للذى طال انتظاره ، وطال قرعُه الأبواب، وطال
تقلُّب وجهه فى السماء .. آن له أن يعرف أنه هو .. وليس
أحدًا سواه . . . ! ! !

هو ، هو المدَّخر لحمل آخر كلمات السماء إلى
الأرض .. ! !

وهو ، هو - الذى بشرَّت به الكتب ، وتحدَّث عن قرب
مجيئه الأنبياء ، والحنفاء . . ! !

وهو ، هو - الذى سيحمل فوق كاهله الوثيق تبعات
دين ورسالة ، ليسًا إلى قومه وحدهم - كما كان شأن الأنبياء
من قبله - بل إلى البشرية كلها .. ("قل : يا أيها الناس إني
رسول الله إليكم جميعًا") ..

وهو ، هو - من سيحمل النور الذى طالما بحث عنه فى
توقٍ عظيم .. وسعى إليه فى شوق حميم . . ! !

وبعبارة واحدة - هو "محمد" رسول الله .. ونذيرُه..
وبشيره .. والداعى إليه بإذنه وسراجُه المنير .. ! ! فكيف تمت

كلمة الله ، وكيف - فى يوم شروق عظيم - تلقى كلمة الله ،
ووثيقة التكليف ؟ !!

* * *

من قبل ، كانت الرؤيا الصادقة تملأ نومه
بالبشريات .. فكان لا يرى رؤيا إلا صدقت وتحققت
كانبلاج الصباح وضوء الضحى .. لكنه اليوم . وفى السنة
التاسعة بعد الستمئة للميلاد .. وفى الهزيع الأخير من إحدى
ليالى رمضان ، ألتقى أمين الأرض بأمين السماء !!.. وجاءه
الملك !!..

.....

.....

لن تستطيع الأقلام أن تصوّر أو تتصور حقيقة ولا هوية
ولا أسرار تلك اللحظات التى شهدت - لأول مرة - لقاء
سفير السماء بالأمين "محمد ﷺ" الذى سيصبح بدءاً منها ومنه
"رسول رب العالمين" ..

فلتجاوزها إلى الحوار المثير الذى الذى دار بين الملك
والرسول فى مثل سرعة الضوء .. وهو حوار يرويه الرسول -
عليه السلام - بنفسه قائلاً :

".. فقال : إقرأ .. قُلت : ما أنا بقارئ .. فأخذني

فغَطَّنِي - ضمّه بقوة واعتصار - حتى بلغ مني الجهد !! ثم

أرسلني - تركني - وقال : إقرأ .. قُلت : ما أنا بقارئ..

فأخذني وغطَّنِي الثانية !! ثم قال : إقرأ .. قُلت : ما أنا

بقارئ .. فأخذني وغطَّنِي الثالثة !! ثم أرسلني ، وقال إقرأ..

قُلت : وماذا أقرأ ؟؟ فقال :

﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق..

خلق الإنسان من علق ..

إقرأ وربك الأكرم ..

الذي علم بالقلم ..

عَلَّمَ الإنسان ما لم يعلم..﴾

أَهْلٌ - إذن - يوم الشروق والاصطفاء .. ودَقَّتْ ساعاته

الصادحة ، وبُشْرِيَّاتُهُ الْمَانِحَةُ . . . ! !

* * *

والآن ، أرجع والقارئ معي إلى كلمات كنت قد

أودَعْتُهَا كتابي : "عشرة أيام في حياة الرسول" . الذي

ظهرت طبعته الأولى في مارس عام ألف تسعمائة وسبعين ..

أرجع إليها ، لأنها لا تزال ، وستظل تُمثل "رؤيتي"

وتفسيرى ، وانبهارى بيوم الوحي العظيم ..

"أعلنت السماء إذن مُختارها ومُصطفاها الذى طالَ
ترقبه، وانتظاره .. وصدقت إذن كلمات الكتب ، ونُبوءات
الحنفاء والقديسين ..

وهاهو ذا ، فى مكان منعزل عن صخب الحياة ، فى
أعمق غور لأعلى جبل ، حيث أوى إلى هناك ناسكاً طهوراً
يضرع إلى ربه كى يدله عليه ، يهبط عليه سفير السماء فى
جلاله ، حاملاً نور الله إلى المتبتل الأبواب ، وحاملاً إلى
البشرية وثيقة رُشد جديدة سيكون إمامها فيه وأستاذها
ومعلمها هذا الإنسان الودود ، حفيد إبراهيم ، ودعوتُه
وبُشراه .. !!

تُرى لو لم يكن يوم الوحي هذا ، بين أيام الدنيا ، فأى
مصير كانت البشرية ستلاقيه . . ؟ ؟

إن الكلمة التى استهلّ بها الوحي بنحوه مع رسول
الله ﷺ لتقدم لنا أروع وأجمع .. وأوجز وأنجز جواب ..
فإذا كان العلم ، جوهر كل حضارة أقامها الإنسان على
ظهر أرضه ، وكوكبه ..

وإذا كان الإسلام - فيما بعد - قد قدم للدنيا حضارة

متكاملة تدين لها كل الحضارات التي جاءت بعده ، حتى تلك التي استهدفته بشنائها وعدوانها .

إذا كان ذلك كذلك فإننا نستطيع أن ندرك فى يسر لون المصير الذى كانت البشرية ستلقاه وتزدى فيه لو لم يكن يوم الوحي .. يوم "اقرأ باسم ربك" ، يوم "القرآن" و "محمد" و "الإسلام" بين أيامها ، بل على رأس أيامها.

كذلك نستطيع أن ندرك فى يسر ، لماذا كانت أولى كلمات الله إلى رسوله "اقرأ" .

لم تكن "صَلِّ" ولا "صُمْ" ، ولا "تَعْبُد" بل كانت: اقرأ.. هذه "الكلمة" التي لخصت جوهر الإسلام ومستقبله..

فهو لن يكون دين تكريس دينى فحسب . بل ولا دين سلوك فحسب ، إنما هو قبل ذلك وفوق ذلك "دين حضارة" .. جاء ينشئ عالماً جديداً بكل ما تحمله كلمات "عالم" و "جديد" من معنى ودلالة .

ولكى يستيقن الناس عبر الزمان كله أن هذه الحضارة المقبلة هي عطاء السماء ، فقد اختير استاذها وبانيها ذلك الذى لا عهد له من قبل بقلم ولا بكتاب .. ذلك أنه يكون مخترعاً لهذا الدين والحضارة .. إنما هو مبلغ عن الله .. ناقل

عطاياه من السماء إلى الأرض .. ومن ثمّ سيكون معه من
المقدرة ما يغير به كيمياء الزمن ، وكيمياء البشر وكيمياء
الحياة. ! !

ومن يدري .. فلعل الضمّات الثلاثة الشديدة التى ضمّه
الملك بها حتى كادت أضلاعه تنسحق تحت ضغطها ، والذى
وصفها الرسول فى حديث آخر قائلاً : "فغَطَّنِي حَتَّى ظَنَنْتُ
أَنَّهُ الْمَوْتُ"

أقول : لعلّها كانت إجراءً مقصوداً لتغيير كيمياء جسده
هو .. وتغيير كيمياء روحه هو ، عليه أفضل الصلاة وأزكى
السلام حتى يتسع جسده وروحه للقوة الجديدة التى أفرغت
فيهما ليحتملا عبء الرسالة وأهوال النضال .

ولعل انقطاع الوحي عنه بعد هذا اللقاء الأول لفترة
بلغت سنوات ثلاثاً ، كان إجراءً ضرورياً ، حتى يتمكن
الجسد والروح معاً من من استيعاب القوة الإلهية الجديدة التى
أفرغت الوحي فيها ، وحتى تتكيف كيمياء طبيعته البشرية
بذلك المدد العلوى الذى نقلته إليه الضمّات الثلاثة الضاغطة
التى احتواه بها ملك الله جبريل ..

والآن لنمضى مع "يوم الوحي" فى بقيته المجيدة .

إن الرسول يغادر الغار مُسرَّعًا تغذ الرهبة خطاه ، يسائل نفسه ما هذا الذى حدث فجأة وعلى غير انتظار ..؟ ويتلفت وراءه . وأمامه ، وعن يمينه وعن شماله ، فيطمئن إلى أنه وحده ، وليس ثمة من يتبعه .. بيد أن الأفق يلتسع فجأة بضياء عجيب ، فيرفع الرسول ﷺ رأسه ليرى .. فإذا هو هناك يملأ الأفق فى جلال مهيب .. نفس الملك الذى كان من لحظات يملأ عليه غار حراء ، وتمخر الرعدة العذبة جسده من جديد ، ولا يدري أيان يسير ، فتشبث قدماه بالأرض ، وتستقبل أذناه هذا النداء :

"يا محمد ! أنت رسول الله ، وأنا جبريل"

فيغشاه من وقع المشهد ما يغشاه ، وتزداد قدماه التصاقًا بموطئها كأنهما من الأرض بعض غراسها !!..

ويغيب الضوء ويغيب معه مشهد الملك ، ويستأنف الرسول سيره مقتلعًا من الرمال خطاه ..

ولا يكاد يبلغ داره ، ويلقى زوجة "خديجة" حتى يلقي نفسه فى حجرها وبين يديها ، وكل جسده يرتجف كالزلال ..

وتهتف "خديجة" وقد التمع وجهها الجليل تحت ضوء

الأمل واليقين :

"أبشر يا ابن عم ، واثبت "

فوالذى نفس خديجة بيده ، إنى لأرجو أن تكون نبى

هذه الأمة"

يقول لها الرسول ﷺ ، وقد أخذ الرّوع يُزايله ، والسّكينة

تقترب منه : "لقد خشيت على نفسى" .

وتحييه خديجة :

"كلا .. وأبشر .. فوالله لأُخزّيك الله أبداً ، إنك

لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل ، وتكسب

المعذوم ، وتقرى الضعيف ، وتعين على نوائب الحق" .

لم تعش "خديجة" التجربة التى عاشها الرسول ﷺ فى

الغار .. كانت بعيدة عن هذا الذى حدث فجأة ، وانتهى

فجأة .. فى لحظات ، كأنها قرن من الزمان ..!!

من أجل هذا ، كانت فرصتها مُهيأة لكى تقول كلماتها

هذه فى هدوء .. وجزاها الله خيراً ، فقد كان موقفها

ذاك جديراً بمن اختارها القدر على علم لتكون قرينة هذا

الرسول صلى الله عليه وسلم..

* * *

تُرى لو أن "محمدًا" ﷺ كان يطمح إلى مجد النبوة،
 ويعمل لبلوغ هذا المجد بوسائل مصنوعة ومُتكلِّفة - أكان حاله
 عند مجيء الوحي إليه سيأخذ هذا الطابع الذى رأينا ١٩٠٠
 كلا .. بل ولا كانت الأقدار ستختاره لهذا العطاء .
 لكن "محمدًا" ﷺ كان يرجوا الله ربّه .. كان يريد الله
 ربّه .

لم تكن فيه ذرّة طموح لمجد دينى . اعنى لمجد يكسبه
 باسم الدين .. بل كان كله طموحًا لتكريس دينى .. كان
 كله شغفًا وهيامًا بعبودية خالصة يطرّحها فى تواضع وبكاء
 بين يدى ربه العلى الكبير .. وكان كله شغفًا وهيامًا بأن
 يعرف الحق ، ثم يهديه إلى البشرية الحائرة ويهديها إليه . ثم
 كانت مزاياه التى فطره الله عليها تؤهله لكل ذلك .. فكان
 فضل الله عليه عظيمًا .

* * *

لم يكن من طبائع الأشياء أن تنجو "خديجة" من زهول
 المفاجأة رغم الكلمات الحانية التى ألهمتها حكمتها إياها،
 لتُسرّى بها عن الرسول رهبة المشهد ، وتخفف من
 وقعه وهيمته .

لم يكن من طبائع الأشياء ، ولا من طبائع البشر ألا
ينتقل إليها من الرهبة نصيب ، مهما حاولت بهدوئها المتبدى
أن تكتم الرهبة وتخفيها .

صحيح أن رهبتها لم تكن شيئاً مذكوراً بالنسبة لرهبة
الرسول الذى عاش التجربة وعانها .. بيد أنها رهبة تثير من
الخيرة .. وخيرة تثير من الرهبة ما يدخل الذكاء الإنسانى
مهما تكن مقدرته فى أزمة تساؤل وقلق .

ولقد استطاعت "حديجة" العظيمة حقاً أن تلقى وجه
المفاجأة بثبات كان نابغاً من شخصيتها الفريدة .. أما بقية
المفاجأة ، فقد كانت بحاجة إلى نجدة أخرى تُعطى لما حدث
تفسيراً ، وتُضفى على الروح الذى لايزال مأخوذاً ، المزيد من
السكينة واليقين .. وتمثلت لها هذه النجدة فى ابن عمها
"ورقة بن نوفل" واحداً من الذين استهجنوا عبادة الأوثان
والأصنام .. وأضنى نفسه فى البحث عن الدين الحق ..
وحين أدركه الإعياءلقى رحله على مرفأ من مرافىء
النصرانية متمثلاً فى ذلك المذهب الذى كان يرى فى المسيح
بشراً ، لا إلهاً ..

وهكذا اقترحت "حديجة" على "الرسول ﷺ" : أن يذهب

إلى "ورقة" عليهما يجدان عنده رأيا وتفسيرا ..

كان "ورقة بن نوفل" على علم واسع بالتوراة والإنجيل ..
وقد قضى شطر عمره فى البحث عن دين حق يعبد الله به،
وخلال رحلاته وأسفاره التقى بكثير من الأحبار والرهبان
والناسكين ، ولطالما سمع نبوءة تتردد بأن رسولا يبعث إلى
الحياة دين إبراهيم على وشك أن يهل ويظهر . وذهبت بعض
النبوءات إلى أبعد من هذا ، فحددت مكان ظهوره - مكة وما
حولها .

وعاش "ورقة" بقية عمره ينتظر على شوق يوم الظهور،
ويعنى نفسه بصحبة الرسول الذى اجتمعت نبوءات العارفين
على قرب مجيئه ، لذلك وطّن نفسه على الاستقرار بمكة فى
انتظار الرسول .

وهكذا لم تكد "حديثجة" تقدم نبأ زوجها عليه السلام،
قائلة له :

"يا ابن عم ! اسمع من ابن أخيك"، حتى حاجته أشواقه
العميقة . وأقبل على الرسول يصغى إليه فى انبهار عظيم .
ولا يكاد الرسول ﷺ ينهى حديثه حتى يتهلل "ورقة"،
ويفيض بشرا، ويعانق الرسول ﷺ ويقول له :

"هذا هو الناموس الذى أنزل على موسى ليتنى أكون
حيًا إذ يخرجك قومك" .

ويسأله الرسول ﷺ : "أو مخرجى هم" ..؟
ويجيبه ورقة : "نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به
إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا"
بهذه الحفاوة ، وبهذا اليقين تلقى "ورقة" النبأ الحق الذى
كان من قبل نبوءة طال تطلعه إليها .

وإنه ليتمنى أن يدركه يوم البعث ليكون أول المؤمنين
وأقوى النصراء . لكنه سيموت وشيكًا ، قبل أن يجيء يوم
البعث العظيم .
وهكذا لم يُقدر له رغم فرحه الغامر أن يؤمن بالرسول
وبالدين الجديد .

ذلك أن الدين الجديد لم يكن قد أعلن ميثاقه بعد ..
والرسول ﷺ لم يؤمر أن يبشر بشيء ، أو أن يتلقى بيعة .
إنه الآن يعيش فى يوم الوحي .. يوم ﴿اقرأ باسم ربك
الذى خلق﴾ . وبعد حين يجيء يوم البعث .. ﴿يا أيها
المدثر ، قم فأنذر﴾ .

وبين اليومين زمن ليس بالقصير ، سينقطع فيه الوحي

لحكمة يعلمها الحكيم العليم .

وخلال هذه الفترة ، ستكون روح الرسول ﷺ قد
أشربت النور الجديد وتهيأت لاستقبال موكب العظيم .

وخلالها أيضًا ستكون أشواقه الحميمة والعظيمة إلى
الوحي قد قهرت كل مخاوفه وتهيبه ، وأعطت روحه مناعة
هائلة ضد أى توجُّس أو تساؤل .

أجل ، لقد ترك لأشواقه المحتدمه والعارمة تُشكل مُناخ
علاقته بالوحي حين يعاوده ويحيثه وتُنضج استعداداه الأخير
لصحبه ..

وهكذا ، رأيناه عليه السلام ، ينطلق أمام ضغط أشواقه
إلى الجبل ، مقلِّبًا وجهه فى السماء ، معتصرًا مآقيه بدموع
الحب والرجاء ، هاتفًا ضارعًا من أعماق صمته المدوى ، على
روح القدس يُمن عليه بعود قريب .

لكن الروح القدس لا يملك من أمره شيئًا .. وفيما بعد
سيخبر الرسول ﷺ بهذه الحقيقة قائلاً له :

﴿ وما ننزل إلا بأمر ربك له ما

بين أيدينا وخلفنا وما بين ذلك

وما كان ربك نسيًّا ﴾ .

وظل يعاود قنن الجبال راجياً أن يراه ..
وعلى الرغم من احتدام أشواقه ، وتوقد لهفته ، وتوجُّسه
الرهيب ، من أن يكون الله قد أهمل أمره وقلاه .. على
الرغم من ذلك كله ، فإن ذلك كله لم يذهب به إلى حد
الرغبة في تحرير نفسه من هذا القلق بالتخلص من الحياة كما
تزعم بعض الأقاويل .

إن كل عناصر الموقف ترفض وتدحض هذه المقولة .
فليس محمد بشخصيته الراسخة وشأئله الشاخنة ، من
يصنع ذلك أو يفكر فيه .

ثم إن الأشواق حين تتفجر على النحو الذى عاناه
الرسول ، يكون من شأنها أن تمنح الأمل والرجاء ، لا القنوط
والياس .

أما اختياره المرتفعات ليناجى فوقها نفسه ، ويتحسس
أمله ، فلأنها دائماً أصلح مواطن التأمل ، والتماس السكينة ،
وتوقع الإلهام .

* * *

ألا ما أجلها من حكمة - تلك التى أرادت أن يفتُر
الوحي عنه إلى حين ..

فإلى جانب كونها فرصة تستوعب فيها الروح شحنة
النور التي تلقتها فى أول لقاء مع جبريل .

وإلى جانب كونها مجالاً لتجميع كل قوى الشخصية
وحشد طاقاتها لتقوى على الصعبة الطويلة للوحى .. تلك
الأيام ستدوم ثلاثة وعشرين عاماً كاملة .

وإلى جانب كونها تمكيناً لعلاقته المقبلة مع الوحى
عن طريق تحريك أعماقه بالشوق الوثيق والحميم .

وإلى جانب ما قد تومىء إليه من منحه حق الاختيار، إن
شاء أن يتقدم حاملاً من أعباء الرسالة ما يطاق وما
لا يطاق . وإن شاء فليتأخر ، قبل أن يرتبط مع الوحى بعهد
وميثاق ..

نقول : إلى جانب هذا الذى يمكن أن نلتمس فيه بعض
الحكمة فى انقطاع الوحى عن الرسول ﷺ إلى حين .. فقد
كان فى وسعه خلال تلك الفترة أيضاً . أن يعيش فى نور
الآيات الخمس التى لقنه الوحى إياها فى الغار .

هذه الآيات التى تطل كلماتها المعدودة على موكب
زاخر من المعانى والدلالات .

هذه الآيات التى لم تستهل حديثها معه عن القرشى،

ولا عن العربى .. بل عن الإنسان :

﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾

وكانها تشير إلى التخوم البعيدة والفسيحة لرسالته ..

فهو - عليه الصلاة والسلام - لن يكون لقريش وحدها ، ولا للعرب وحدهم ، بل للناس كافة وللبشر أجمعين .

كذلك سيكون فى وسعه أن يروّض نفسه على الكثير من الصبر والاحتمال وتجريد يقينه من كل علاقات الحياة والناس .. هذه الأمور الكبرى التى سيذكره القرآن بها كثيراً فيما بعد قائلاً له :

﴿ فاصبر لحكم ربك ، ولا

تكن كصاحب الخوت إذ نادى وهو
مكظوم ﴾ .

سورة القلم - الآية: ٤٨

﴿ فاصبر لحكم ربك ، ولا

تطع منهم أمماً أو كفوراً ﴾ .

سورة الإنسان - الآية: ٢٤

﴿ ولولا أن ثبتناك ، لقد كدت
تركن إليهم شيئاً قليلاً ﴾ .

سورة الإسراء - الآية: ٧٤

أجل .. إن مع الرسول ﷺ الآن ، وخلال فترة انقطاع
الوحي عنه أعظم فرص امتلاك الصبر والاحتمال والتجريد .
وكأنما أراد الوحي بانقطاعه عنه أن يُتيح له هذه الفرصة
فى ذروة تعبيراتها ومسلكتها .

فالذين هامت قلوبهم بحب الله ونذروا حياتهم له
سبحانه ، قد يطيقون الصبر معه ، أى مع ما يتوسلون به
لمرضاته من عبادات بالليل والنهار .
وقد يطيقون الصبر فى سبيله ، عما يحتملون من أذى
واضطهاد .

لكن الأمر الذى يجاوز طاقتهم حقاً ، هو الصبر
عنه...!!

ومن ثم لانجد نبياً ولا ولياً ولا قديساً يزلزله فى أهوال
الحياة كلها شيء إلا أن يُسلب نعمة حب الله له ، وحبه الله .
فالصبر عن الله أمر فوق طاقة كل قديس بل وكل نبي..
فكيف إذا عانى هذا الموقف الرهيب رجل جمعه مع الله وحي

سمعه وأحسه ، وآه ..؟ كيف إذا عاناه رجل أرسل الله إليه
وحياً وسفيراً يباركه باسمه ويبلغه تحيته ورضوانه ثم إذا هو
فجأة ينقطع عنه دون أن يعطى وعداً بقاء ..؟

هنا الفرصة التي لا تتكرر لكى تحل فى روح الرسول
وشخصيته أقصى ما عرف البشر وما لم يعرفوا من قوى الصبر
والاحتمال والتجريد .

فأما الصبر والاحتمال ، فهذا هو ذا يرى فى لحظة من
الزمان - الشمس ملء يمينه والقمر ملء يساره .. ثم فجأة لا
يراهما .. ولا يرى إلا فراغاً وحيرة .. وليس أمامه سوى
الصبر حتى تعود الفرصة اليتيمة ، إذا كان مقدراً لها أن تعود.
ولكى يصبر على مثل هذه التجربة ويحتملها ، فإن عليه أن
يُمارس نوعاً من الصبر لم تعرفه الدنيا من قبل !!..

وأما التجريد التجريد .. تجريد يقينه بربه من كل
العلاقات حتى تلك التى تكون مثوبة لليقين وانعكاساً له ..
فها هو ذا يظفر بما لا يخطر على قلب بشر من الناسكين
والعابدين - وحى من الله يزوره ويُقرئه آياته ، فيقول له :
أنت رسول الله .. وأنا جبريل .. ثم يمضى كأنه لم يجرى ،
وكان لم يكن . وينقطع وقتاً طويلاً دون بادرة عودة ..

أهناك فرصة أجود من هذا وأبلغ ليجرد الرسول ﷺ
يقينه من كل علاقة ويحرره بصورة مطلقة لرب العالمين ،
ولذات اليقين ؟؟..

أجل إن انقطاع الوحي يعنى هذا .. ولكأنه يقول
للرسول ﷺ : ليأت الوحي ، أو لا يأتى ..

ليذهب عنك إلى حين .. أو ليذهب عنك إلى الأبد ..
ذاك أمر ، لله مرده ومرجعه .. أما أنت فلتبقي مكانك من
العبادة والنسك .. وليبق يقينك فى دائرة تبثله وتجرده ..
ولتبقي روحك حيث هى ساجدة فى فلك العبودية الخالصة ..
وبكلمة واحدة .. ابق مكانك ، ولا تُرد من الله سوى الله ..

* * *

ولقد اجتاز الرسول -صلى الله عليه وسلم- التجربة
بنجاح عظيم ، باذلاً أقصى ما يملك البشر من طاقة ، معانياً
من مقاومة القلق ، ومن دعم قوى الاحتمال والصبر فى نفسه
مالاً يقدر عليه سوى أولى العزم من المرسلين ..

وبعد حين سيجيئه الوحي فى صلصلة فرح عظيم ،
مستأنفاً معه الرحلة المباركة ، تالياً عليه قول ربه العلى الكبير:

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ، مَا أَنْتَ
بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ، وَإِنَّ لَكَ
لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ
عَظِيمٍ .. ﴾ سورة القلم - الآيات ١-٤

لقد نجح "محمد" ﷺ وفاز فوزًا عظيمًا .
نجح رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وجاء الوحي
يتوجه بأكرم وأشرف وأطهر تاج ..
﴿ وَإِنَّ لَكَ لَأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ ، وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾
هل نستطيع أن نتصور بهجة العيد وجلال العيد الذى
أقامته السماء لصفيها ورسولها ، حيث يتلقى فيه بعد طول
قلق وتساؤل واصطبار نداء الله العظيم أن ها أنذا معك من
جديد ومعك دائمًا ، يا صاحب الخلق العظيم ..!؟

* * *

هنيئًا لك ، أبا القاسم ، ما أعطيت وأوليت .. وهنيئًا
لأمتك بك .
والآن ، فمع وحى الله وسفيره .. لن نُقلِّب وجهك بعد
اليوم باحثًا عنه .. فهو معك بإذن ربه ، يتنزل على قلبك

بالنور والفرقان . فغداً يتلو عليك :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزْمَلُ .. قُمْ
الَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا .. نِصْفَهُ أَوْ انْقِصْ
مِنْهُ قَلِيلًا .. أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ
الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا ﴾ .

سورة المزمل- الآية ١-٤

وبعد غد ، يأتيك بإعلان البعثة والرسالة والتكليف :

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ، قُمْ فَأَنْذِرْ .. ﴾

سورة المدثر- الآيات ١-٢

ثم تتوالى روحاته وغدواته ، بين السماء والأرض .. بين
الله ورسوله . لسوف يصحبك ثلاثاً وعشرين سنة .
وسوف لا تفتقد أبداً مدد ربك ، ولا صُحبة خليلك ..
وستتم النعمة لك .. وعليك يا أبا القاسم ...
ولسوف يعطيك ربك فترضى

الفصل السابع

أبشَرُ يهدونا..!؟

كانت مأساة البشر عبر الحقب والقرون ، إنهم كلما
جاءهم رسول من أنفسهم يأكل مما يأكلون منه ، ويشرب مما
يشربون .. يحمل لسانهم ، ويتحدث معهم وإليهم بلغتهم ..
كانت مأساتهم أنهم يدينونه ما كان ينبغي أن يكون
موضع الإجلال والتوقير ، وداعى التصديق والتوثيق ..
أجل - كانوا يدينون بشريته ، ضائين بالرسالة على البشر
وبنى الإنسان ..!!

كان ذلك يعنى المراوغة والهروب من مواجهة الحق
المبين.. كما كان يعنى جهلهم الأعمى بقيمة الإنسان..!!
هنالك استكثروا أن يصطفى الله من البشر رُسلاً

وأنبياء ، فقالوا - فى كل أحقابهم ، ولكل رسلهم :-
﴿ أبشّر يهدوننا ﴾ . . ؟ !

كأنهم لم يعرفوا ، أو عرفوا ولم يصدقوا أن الله
اصطفى آدم ، ونوحًا ، وآل إبراهيم ، وآل عمران على
العالمين .. وإنه سبحانه وتعالى آثر "آدم" عليه السلام ، فجعله
فى الأرض خليفة ، رغم تطلع ملائكته المقربين لهذه المكانة
الرفيعة .. وإنه - عز وجل - كرم نبيه وفضلهم على كثير مما
خلق تفضيلاً...!!

كل أمة قد خلا فيها نذير .. وكل أمة قالت لنذيرها
ورسولها : "ما أنت إلا بشر مثلنا" ..

وأى بأس ؟؟..

أكانوا ينتظرون "ملكًا" رسولاً ؟؟..

أليس الله أعلم حيث يجعل رسالته ؟؟..

وإذا كانوا لم يطيقوا صحبة الرسول البشر ، وهو واحد
منهم .. فأنى لهم أن يطيقوا الرسول الملك .. وأن للملك أن

يصير على صحبتهم ، وعلى مكرهم ، وما يافكون ؟؟.. !!

كلهم قالوا : "أبشّر يهدوننا" . . ؟ !

وكذلك قالت "قريش" لابنها الأمين .. ولقد حذرهما
الله سبحانه في قرآنه العظيم ، وحذر كافة المشركين
والمكذبين الذين أخفوا أضغانهم وأحقادهم خلف هذا المنطق
المهل ، والمقولة الداحضة .. حذرهم أن يركبوا سنة الذين
من قبلهم فقال جل جلاله :

﴿ ألم يأتكم نبا الذين كفروا
من قبل، فذاقوا وبال أمرهم، ولهم
عذاب أليم . ذلك بأنه كانت
تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا:
أبشرّ يهودنا ..؟ فكفروا،
وتولوا، واستغنى الله، والله غنى
حميد !! ﴾

الآية ٦٥، ٦٤ سورة التغابن .

تلك كانت مشكلة المكذبين بآيات الله ورُسله ..

فقالوا : ﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم،
يأكل مما تأكلون منه، ويشرب مما
تشربون ﴾ .

الآية ٣٣ سورة المؤمنون ٢٣

وقالوا :

﴿ ما هذا إلا بشر مثلكم يريد
أن يتفضل عليكم ﴾ .

الآية ٢٤ سورة المؤمنون ٢٣

وقالوا لرسلم :

﴿ ما أنتم إلا بشر مثلنا ، وما
أنزل الرحمن من شىء ﴾ .

الآية ١٥ سورة يس ٣٦

وقالوا :

﴿ .. وما أنت إلا بشر مثلنا ،
وإن نظنك لمن الكاذبين ﴾ ..

الآية ١٨٦ سورة الشعراء ٢٦

وقال بعضهم لبعض :

﴿ ولئن أطعتم بشراً مثلكم ،
إنكم إذن لخاسرون ﴾ .

الآية ٣٤ سورة المؤمنون ٢٣

وقالوا :

﴿ أبشر منا واحداً نتبعه .. إنا
إذن لفى ضلال وسُعر ﴾ .

الآية ٢٤ سورة القمر ٥٤

* * *

بهذه التساؤلات الغبية ، واجه قوم كل رسول
رسولهم .. ويمثلها واجه مشركو مكة سيدنا "محمداً" رسول
الله إليهم ، وإلى العالمين !!..
ولقد كان المرسلون جميعاً - عليهم صلوات ربنا وسلامه
- لا يكفون عن تقرير بشريتهم ، وتوكيدها ..

﴿ قالت لهم رسلهم : إِنْ فُحِنَ
إِلَّا بِبَشَرٍ مِثْلِكُمْ ﴾ .

الآية ١١ سورة إبراهيم ١٤ .

﴿ قل : إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ
يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُم إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾

الاية ١١٠ سورة الكهف ١٨ .

﴿ قُلْ : سُبْحَانَ رَبِّي .. هَلْ
كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ ١٩

الآية ٩٣ سورة الإسراء ١٧ .

وكان الرسول "محمد" عليه أفضل الصلاة وأزكى
السلام يؤكد هذه الحقيقة ، ويُعنى بترسيخها في قلوب الناس
وعقولهم .

وعلى الرغم من أن خصومه من المشركين كانوا

يركزون على هذه المقولة : ويجعلون منها ومن المعجزات
المادية المحسوسة تحدياً مزعجاً .. إلا أن الرسول - عليه
الصلاة والسلام - بقى صامداً مؤكداً أنه رسول من البشر،
وإلى البشر .. مُعلنًا ما أمره ربه أن يصدع به :

﴿ قل : لو كان فى الأرض
ملائكة يمشون مطمئنين ، لنزلنا
عليهم من السماء ملكاً رسولاً ﴾ .

سورة الإسراء : الآية ٩٥

لقد جهل المشركون أن الله - جل جلاله - لا يمتحن،
ولا تناله اختبارات الناس وتفسيراتهم .. ومن ثم فهم باطلون
ومبطلون حين يتناولون بالقول ، فيسألونه سبحانه: أن يرهم
قدرته من خلال "محمدٍ" إذا كان إلهاً حقاً قديراً.. وأن يرهم
صدق "محمدٍ" من خلال قدرته وتوثيقه وتأيده لهذه النبوة
ولصاحبها ..!! لم يستطيعوا أن يرتفعوا بتفكيرهم إلى المستوى
الذى عنده يدركون أن معجزة "محمدٍ" هى "محمدٌ" ذاته..!!
وأن أروع آياته ومعجزاته ، ماثل فى أن الله جعله هُدى
ونوراً.. وأن القرآن العظيم بكل مقاييس العظمة ، الصادق
بكل مقاييس الصدق ، هو المعجزة الالائية بدين هو خاتم

الأديان .. ومن ثم فهو باقٍ ، وخالد ، وعميم .. ولأنه
كذلك ، فان توثيقه لا يعتمد على حوارق مادية ، لا يراها إلاّ
الذين يشهدونها فى بضع لحظات ، ثم تنتهى وتُصبح مجرد
ذكرى وأحاديث .

إنما يعتمد على "كتاب مُنير" لا ينصل بهاؤه .. يحمل إلى
البشرية فى كل عصورها وأجيالها ما أودعه الله فيه من حكمة
وهدى ونور ..

* * *

لم يدرك الجاهليون فى عصر الوحى هذه الحقيقة الناصعة
والساطعة .. ولا يزال كثيرون من خصوم الإسلام فى عصرنا
هذا عاجزين عن إدراكها . أو هم قادرون على إدراكها
ورؤيتها وسماعها ، لكنهم لا يستجيبون .. !! طالب كفار
مكة الرسول الأمين ببضع حوارق مُضحكة .. حملها القرآن
الكريم إلينا ، وإلى الأجيال ..

﴿وقالوا : لن نؤمن لك حتى
تفجر لنا من الأرض ينبوعا .. أو
تكون لك جنة من نخيل وعنب ،
فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا .. أو

تُسْقَطُ السَّمَاءُ ، كما زعمت علينا
 كسفا . . أو تأتي بالله، والملائكة
 قبيلا .. أو يكون لك بيت من
 زُخْرَف .. أو ترقى في السماء ..
 ولن نُؤْمِنَ لِرُقْيِكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا
 كِتَابًا نَقْرُؤُهُ .. قل : سبحان ربى!!
 هل كنتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا . وما منع
 النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا
 أَنْ قَالُوا : أُبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿١٩﴾

الآيات ٩٠ إلى ٩٤ سورة الإسراء ١٧

ماذا وراء هذا المنطق المخبول .. إن كان منطقاً على

الإطلاق . . ؟ !

وراءه أناس ، لا يريدون رسولا .. بل يطلبون "ساحراً"

يستزهبهم بسحره . . ! !

ويطلبون "اقطاعياً" ضخماً .. و"رأسمالياً" فخماً ، تكون

له القصور المزخرفة ، والحدائق الباذخة ..!!

ويبتغون "إلهاً" يُسْقَطُ السَّمَاءُ كسفاً .. وينزل إليهم

متحدثاً معهم ، ومُصَافِحاً لهم .. وتجيء معه الملائكة قبيلا..!!

وتولى الله الجواب بما أنزله على قلب رسوله :

﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْ !! هَلْ

كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴾ ؟!

* * *

إن الصدق يحمى نفسه ، ويؤكد نفوذه .. وهذه أوضح سماته ، وأعظم ميزاته ..

ومع الصدق ، تحيى معجزة أخرى من المعجزات الأصيلة ، والخليقة بالتقدير ، متمثلة فى هذا القدر الباهر من الثبات والمثابرة .. ثبات الرسول وثبات أصحابه العُزل والمستضعفين ، كانت أولى محاباته ومواجهاته للخصومات اللجة ، والتحديات اللاهثة .. مفاجأة بالغة القسوة .. بيد أنها فى نفس الوقت كانت نعمة مُقنَّعة جاءت فى أوانها .. !!
ذلك أنه بعد فترة من مبعثه ، وحيث كان يُبشر بدعوته سرًا ، جاءه الوحي الأمين حاملاً أمر الله لرسوله ﷺ بالجمهور والعلانية :

﴿ فاصْنَدِعْ بِمَا تُوْمَرُ ،

وَأَعْرِضْ عَنِ الْمَشْرِكِينَ ﴾

الآية ٩٤ سورة إبراهيم ١٥ .

فنهض عليه السلام ، آخذًا طريقه إلى تلة الصفا .. ومن
عليائها راح يُنادى بصوت قوى جهوري داعيًا العابرين إلى
الإقبال عليه ، والإصغاء لما يقول ..
وكان قبل ذلك قد أرسل فى طلب زعماء قريش
وشيوخها ليلتقوا به عند الصفا ..

وهناك وقف يُلقى أولى كلماته الجهرية المعلنة :
"أرايتم لو أخبرتكم أن خيالاً
بالوادي تريد أن تغير عليكم ..
أكنتم مُصدقين؟؟"

وأجابوه بملء خبرتهم بظهر حياتهم ، وبصدق كلماته ،
وَبَثَّقَتِهم الكاملة التي أضفاها عليهم سلوكه العظيم والنبيل ،
منذ كان يافعاً .. وحتى هذه اللحظة التي ينهض فيها خطيباً ..
أجابوه: نعم والله نصدقك، فما جرّنا عليك كذباً
أبداً ..

قال صلى الله عليه وسلم :
"فإني نذير لكم بين يدي عذاب
شديد ، وإني رسول الله إليكم : أن
تعبّدوه وحده ، ولا تُشركوا به شيئاً"

الله وحده .. ولا شريك له ..

فأين إذن "هبل ، واللّات ، والعُزى" ؟!

كانت كلمات الرسول العابرة القصار كوميض البرق

وقعقة الرعد ..

أما الثلاثون الذين كانوا قد استجابوا لله وللرسول ،

وأسلموا فى مرحلة الخُفية والمُساررة ، فقد أضاءت وجوههم

أنوار متألقة غامرة ..

وأما الكافة من أهل مكة الذين يستمعون هذا النشيد

السماوى لأول مرة ، فقد راحوا يتبادلون الدهشة

والنظرات .. وأما عِلية قريش وصفوتها ، فقد بهتوا ، ووجها ،

والتقت نظراتهم الحائرة والخائرة عند وجه "أبى لهب"

وكانها تسأله :-

ما رأيك فى ما سمعت ، يا عم محمد .. ؟!

وكان أبو لهب عند حسن ظنهم بجمقه ، فصاح فى

وجه ابن اخيه بعبارة المنكرة : تَبَّ لك .. ألهذا جمعنا ؟!

وكانت مفاجأة قاسية .. فهذا هو ذا عم "محمد" عليه

السلام ، هو الذى يُسفه مُبادرته الكريمة ، ويشجب دعوته

العظيمة !! ..

لم يأتِ هذا الشجب ، ولا هذا الاستنكار من أحد
 آخر.. إنما جاء من عمه ، وأقرب الناس اليه !!..
 بيد أن هذا الموقف المشحون بالإحراج ، وبالسوء ، كان
 كما أسلفنا "نعمة" مُقنَّعة ومتنكرة في سورة بلاء ..
 لكأنما أراد الله سبحانه ، أن يضع هذا النذير أمام رسوله
 صلى الله عليه وسلم .. لكأنه يقول له : أمامك زمن صعب ،
 وجهاد عسير ، فلا تعتمد على غيرنا ، ولا تعقد الأمل على
 سوانا ، ها هو ذا عمُّك .. انظر كيف تحذّك من دون الناس
 جميعًا ، بدلا من أن ينصرك ، ولو بالصمت المُرور .. امض
 لما نأمرك .. ودعنا نُرتّب نحن أمورك .. وسترى أننا أولى
 بك منك ..

ياله من درس حكيم وعظيم ، جاء فى موعده
 وأوانه..!! ولقد حذق الرسول صلى الله عليه وسلم الدرس
 واستوعبه تمامًا .. فهذا هو ذا بُعيد وفاة زوجته "خديجة" وعمه
 "أبى طالب" ، وكانا أكثر الناس احترامًا له ، وحرصًا عليه ،
 وتفانيًا فى حبه ونُصرتِه ، لا يُحاذر ولا يخشى .. ولا
 يتخفّف من عبئه ، ولا يتشد فى خطوه ، ولا يجرى حسابًا مع
 نفسه ومع عواقب الأمور بعد أن رحل عنه نصيراه الأثيران

والكبيران .. بل يحمل قلبه الجسور فى يمينه - بارك الله يمينه -
مُوليًا وجهه شطر مدينة "الطائف" داعيًا أهلها الشرّسين إلى
دين الحق ، راجيًا أن يشكل منهم كتبية من كتائب الدعوة ،
تشدُّ أزرها ، وترد كيد عاديها ..

لم يخف ، ولم يجفل ، ولم يصطحب معه أحدًا من
أصحابه المؤمنين .. بل ذهب فردًا مُتفردًا .. لا يألو على شيء
ولا يحسب للمفاجآت أىّ حساب !!..

وحين لقيه زعماء الطائف بصلفهم وبشراستهم إلى الحد
الذى اغرؤا فيه سفهاءهم أن يسخروا منه ويحصبوه بالحجارة
حتى أدموا عقبه ، لم تهزه المفاجأة على الإطلاق !!..
ألم يتوقع النصره فى مظانها ، يوم حديثه الأول إلى
قريش على الصفا ..؟؟ ثم جاءته المفاجأة الداهلة حين أخلف
الواقع ظنه ، فإذا عمه "أبو هب" يكون أول من يُلقى القُفاز
فى وجهه ..؟؟!

أنى يحميه الخوف إذن من المفاجآت مهما يكن سوءها
وسوءاتها ..؟؟

وأنى له انتظار النصر من غير رب النصر ، الغالب على
أمره .. المسيطر بقدرته وقدره ..؟؟!

لقد صار عليه الصلاة والسلام صديقاً للمجهول .. لا
تستثيره المفاجآت مهما تتلفع بالغموض .. ولا تُرجفه أو
تُفزع احتمالات العواقب مهما تحمله من جراح ورُضوض
..!! أما أعداء الله وأعداؤه ، والضَّاغنون على دعوته ..
والخاقدون على شرف رسالته ، فقد ذهب الله بنورهم ،
وتركهم فى ظلمات لا يبصرون ..

* * *

كان ثبات سيدنا "محمد" صلى الله عليه وسلم وكان
إصراره ومُثابرته .. ثم من بعد ذلك كله أو معه ، كانت
تضحياته المتألقة ، والمتفوقة ، تصنع وتصوغ وتكتب تاريخاً
جديداً لشرف الإنسان .. وشرف الإيمان ..
ولقد يبلغ رجل ما من الرجال أعلى وأسمى آفاق
الثبات والتضحية والمُثابرة نتيجة احتوائه على قُدرات عقلية
ونفسية هائلة ..

أما أن يتنقل نفس القدر من التضحية والمُثابرة والثبات
إلى الآخرين الذين لا يمتلكون مثل قُدرات نفسه وعقله
وروحه .. والذين لا يدفعهم من دوافع الدنيا وطموحاتها أى
دافع .. والذين يرسلون نوابطهم نحو المجهول ، فلا يجدون

على جانيه إلا أخطاراً مُحَدقة .. وشدائد مِرَّحة .. ومحنًا

تزحم الطريق الطويل !!..

أقول : أمّا أن يحدث ذلك ، فالأمر إذن أمرٌ إعجاز

فريد، بقدر ما هو مجيد !!..

أقول : أمّا يتصدّر صفوف المبكرين بالإسلام ثلّة من

صفوة قريش وحكمائها .. مُعرضين شرفهم الرفيع وجاههم

العريض ، وزعامتهم ، ومكائنتهم لإسفاف المشركين

وسفالاتهم وكيدهم الأحمق ، وأذاهم المسعور .. دون أن

يكون هناك مغنم ينتظرونها ، وأمانى يُترقبون مجيئها ، واثقين

لا غير - بكلمة واحدة واعدة همس بها الرسول صلى الله

عليه وسلم في آذانهم :

الجنة .. !!

فهذا إعجاز آخر .. ولن يكون الأخير .. !!

الفصل الثامن

ولماذا هو بالذات ؟ ؟

ما دام الذى اختاره لرسالته وحمل كلمته هو الله رب العالمين .. الله الذى بيده مقاليد كل شىء ، ويعلم السر وأخفى .. ما دام ذلك كذلك ، فما أظن أن لنا الحق - إن كنا بالله من المؤمنين - أن نلقى بهذا السؤال جَهرة ، أو نطوى عليه الصدور ..

فرينا العظيم وهو العليم الخبير أنبأنا حين قال جل جلاله:
﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾
ولم يكن علم الله بمن يختاره لرسالته خاصاً بسيدنا محمد عليه السلام بل عاماً فى كل اختيار لكل المرسلين .. يقول سبحانه :

﴿ ولقد اخترناهم على علم

على العالمين ﴾

فبعلمه الذى لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى

السماء ..

وبمشيئته التى لا تغلب ، وبمحكمته التى لا تغفو، ولا

تردد - اختار من عباده إبراهيم وموسى وعيسى ونوحًا

ويونس وإخوانهم من الأنبياء والمرسلين ، ثم ختمهم

بمحمد ﷺ الرسول والنبي الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته ،

ثم قال لنا :

﴿ وآتبعوه ، لعلكم تهتدون ﴾

ولأنه خاتم المرسلين ، أخذ الله له البيعة منهم ومن أمهم

جميعًا . وإنه ليقول :

﴿ وإذا أخذ الله ميثاق النبيين

لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم

جاءكم رسول مصدق لما معكم

لتؤمنن به ولتنصرنه ؟؟

﴿ قال أقررتم وأخذتم على

ذلكم إصرى - أى عهدى - ؟؟

﴿ قالوا أقرّرنا .. ﴾

﴿ قال فاشهدوا وأنا معكم من

الشاهدين ﴾

سورة آل عمران- الآية: ٨١

وهكذا يجيب الله كل من يسأل - وقبل أن يسأل - لماذا

اختار "محمدًا" ﷺ ليحمل رسالته إلى الناس - جميع الناس

مبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ..

* * *

وحين يختار الله جل جلاله من عباده من يُعلّم ، ويهdy

، ويقود ، رافعاً راية الحق والخير والطهر والحرية والعدل،

فمن البداهة أن يُهيئه لهذا الدور بأعلى الخصائص وأسمى

الأخلاق ففى الرسائل والغايات .. ولا يستطيع من يعرف

سيدنا محمدًا ﷺ أو من يريد أن يعرفه ألا يقف طويلاً مع

أعرف الناس به وأكثرهم صحبة له وأصدقهم لهجة إذا تحدث

عنه .

ذلكم هو صاحبه وابن عمه وزوج كريمته الإمام "على

ابن أبى طالب" كرم الله وجهه ، فلتصغ له وهو يتحدث عن

الرسول صلى الله عليه وسلم :

"كان دائم البشّر ، سهل
 الخُلُق ، لَيّن الجانب .. ليس بفظ
 ولا غليظ ولا صخب ولا عَيّاب
 أجود الناس صدراً ، وأصدق الناس
 لهجة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم
 عشيرة .. من رآه بديهة هابه ..
 ومن خالطه معرفة أحبه .. يقول
 واصفه لم أر قبله ولا بعده مثله ..
 لا يدفع السيئة بالسيئة . ولكن
 يعفو ويصفح .. وما رأيته متصراً
 لنفسه من مظلمة ظلمها قط إلا أن
 يُتّهك من محارم الله شيء فعندئذٍ
 يكون أشد الناس غضباً .. وما خير
 بين أمرين إلا اختار أيسرهما ..
 كان يحيط ثوبه ، ويحلب شاته ،
 ويخدم نفسه .. إذا غضب أعرض
 وأشاح وإذا فرح غضّ طرفه .
 وكان يتفقد أصحابه ، ولا

قصر عن الحق ولا يجاوزه .. أفضل
الناس عنده أعمُّهم نصيحة،
وأعظمهم لديه منزلة أحسنهم
مُواساة ومُؤازرة .. إذا انتهى إلى
قوم جلس حيث ينتهى به المجلس،
ويأمر بذلك .. لا يحسب جلسه أن
أحدًا أكرم عليه منه .. قد وسعَ
الناس بسطه وخلقه ، فصار لهم أبا
وصاروا عنده فى الحق سواء
قد طهر نفسه من ثلاث:
المراء .. والكبر .. ومالا يعنيه .."

* * *

هذه بعض محامد "محمد ﷺ" وخصاله ..
وحسبه أن يُقسِم ربنا العظيم له ولنا فيخاطبه قائلاً :
﴿ وإِنَّكَ لَعَلَى خَلْقٍ عَظِيمٍ ﴾
هذا هو الذى نادى البشر بالأمس ، ويناديهم اليوم،
وغدًا، وبعد غد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .
فإلام دعا ؟ ؟ ولمن انطلقت أنوار شخصيته ، وأضواء

دعوته ، وحنان رحمته ؟

أجل - إلام ينادى "محمد" ﷺ اليوم ، البشر المفلوجين
بالجهالة ، والقسوة ، والضلال .. والمبشرين بسوء المصير
والمآل ...؟؟؟ !

سُبُصِرَ وتُبْصِرُونَ .. ونسمع وتسمعون وسيكون الخير
كله من حظ الذين يبصرون ببصائرهم قبل أبصارهم ..
ويسمعون بأفئدتهم قبل آذانهم ..

ثم يُمَجِّدُونَ اللهَ ويحمدونه ويسألونه :

﴿ ربنا لا تُرْغِ قلوبنا بعد إذْ

هديتنا ، وهَبْ لنا من لدنك رَحْمَةً .

إنك أنت الوهاب ﴿

الفصل التاسع

فَلْيَنْهَضِ الْإِنْسَانُ

سعى إلى الرسول ﷺ يوماً واحداً من زعماء الجزيرة العربية هو "مفروق بن عمرو، وواجه الرسول ﷺ بهذا السؤال :

إِلَامَ تَدْعُو ، يَا أَخَا قُرَيْشِ ؟؟

أجابه الرسول ﷺ : أدعو إلى توحيد الله ، وأنى رسوله ..

قال مفروق : وَإِلَامَ أَيْضًا ؟؟

فتلا صلى الله عليه وسلم الآية الكريمة :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ

وَالْإِحْسَانِ ، وَيَنْهَى

عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ

والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون ﴿١٠﴾
فقال مفروق : "هذا والله دين لا ينفر منه عاقل ، ولا يغيب
عن مشاهديه كريم" !!

إذن ، فهذه دعوة الرسول ﷺ ومبادئ دينه وعقيدته :
* توحيد الله ، وتوجيه أفئدة الناس جميعاً إلى أن إلآههم
واحد - رب السماوات والأرض ، وما بينهما ، ورب
المشارك والمغارب ..

* كما تتضمن الدعوة بعد الإيمان بالله الواحد الأحد -
الإيمان برسالة "محمد" الذى اختاره الله ليبلغ عنه ويُبشِّر به ،
ويدعو إليه .. وماذا أيضاً مما تحتضنه دعوته ورسالته ؟؟

العدل .. والإحسان .. ورفض الفاحشة ، والمنكر ، والبغى
وهذه فى التحليل النهائى لها ، جُماع ما تتطلبه فى
إلحاح وحتمية ، الحياة .. والإنسان ، لكى يبقى للحياة
ازدهارها ، وللإنسان إنسانيته !!

ولقد فهمها "السائل" فقال قولته الذكية التى علّق بها
على إجابة الرسول .

وفى الفصول القادمة إن شاء الله تعالى سنلتقى بتفصيل
ما أوجزه سيدنا مفروق فى بضع كلمات ..

كان "مفروق" من سادات العرب .. وأمام إجابة الرسول عن سؤاله ، ألقى السمع وهو شهيد . معلناً أن هذا الدين أصدق وأوثق وأجل من أن ينصرف عنه رجل رشيد .. وموقف "مفروق" هذا يصحح فكرنا عن أوائل المسلمين الذين سارعوا إلى الرسول في حب غامر وإيمان مكين ..

ذلك أننا نقف عند نفرٍ من الفقراء والعبيد الذين سارعوا إلى الإسلام مثل "بلال" و "خبَّاب" و "آل ياسر" - فنظن أنهم وحدهم كانوا أبطال المشهد الأول .. ناسين ذلك النفر من العلية الذين لم يكادوا يبصرون شفتى الرسول العظيم تنفرجان عن كلمات - الله .. والقرآن .. والإسلام .. يَمْمُوا مسرعين نحو الرحيق ، والنور ، والمستقبل الموعود .. فكان هناك "أبو بكر" و "عبد الرحمن بن عوف" و "سعد بن أبي وقاص" و "عمر بن الخطاب" و "عثمان بن عفان" .. — وكلهم، ومثلهم معهم ، مِن سادات قريش ومن صفوة رجالها ..

وهذا يدلنا على أن شخصية الرسول المُنْعَةِ . والآصرة — كانت شخصيته وسَطًا تمنح بالقسط شرف الحق .. ونور الإيمان .. وتقوى الحياة .. ولا يكاد أحد يلقاها بصدر ودود،

وفهم رشيد حتى تنالَ عليه بركاتها مائة رُوعه بالإجلال
وباليقين.

فى كتابى "إنسانيات محمد" : أهديت الكتاب إلى سيدنا
الرسول صلى الله عليه وسلم فى هذه الكلمات :

* - يا من جئت الحياة فأعطيتَ

ولم تأخذ - يا مَنْ قدَّستَ الوجود

كله ، ورعيت قضية الإنسان ..

* - يا من زكَّيت سيادة العقل،

ونَهَنْهتَ - غريزة القطيع ..

* - يا من هياك تفوقك لتكون

سيداً - "فوق" الجميع ، فعشت

واحدًا "بين" الجميع ..

* - يا من أعطيت القدوة،

وضربت - المثل ، وعبَّدت

الطريق ..

* - يا أيها الرسول ، والأب،

والأخ ، والصديق ..

إليك أهدى هذه الصفحات فى
حياء من يعلم أنه يجاوز قدره بهذا
الإهداء ...

والآن ، فإن الصورة التى رسمتها كلمات الإهداء لم
تتغير ، ولم ينصل بهاؤها .. بل ازدادت ألقاً وصدقاً ومجداً .
فهذا - حقاً - هو الإنسان الكامل الذى قدمه الله
لعباده .. والذى ينادى الإسلام البشر إليه ، ليطالعوا عظمته ..
ويقرأوا رسالته .. ويفهموا حقيقته ، فإذا هم به من المؤمنين .
وله من التابعين ..

وعلى الرغم من أنه عابد زاهد أوّاب فقد كان لُبّاب رسالته
إزهاد الحياة ، وإنهاض الإنسان .

إنه يريد للحياة إعماراً لا يُؤذِن بانتهاء .. ولا يصرف
عنه انفطار السماء ، ولا انتشار الكواكب ، ولا تفجّر البحار
وبعثرة القبور ، ولا كل مظاهر البعث والقيامة والنشور !!
ولنصغ لقوله ﷺ :

"إذا قامت الساعة ، وفى يد

أحدكم فسيلة ، فليغرسها"

لوجمعنا كل ما قاله الفلاسفة والعلماء والحكماء فى

والعمل فى سبيل نهوضه ورفعته وتقدمه الروحى
والمادى ، ودعم حقه فى الحرية والعدالة - هو لُبَاب رسالة كل
نبي وكل رسول .

ولما كان الرسول محمد ﷺ خَاتَم الأنبياء وآخر المرسلين
فقد كان اهتمامه وكانت همومه بالإنسان أكثر أعباءً وأثقل
حملًا من كل أحمال وأثقال إخوانه الذين سبقوه من الأنبياء
 والمرسلين . وبروحه النضير وعزمه القدير ، حوّل هذه الأعباء
والأثقال إلى فيض لا يفيض من الحنان والرحمة والحب .

يسمع أصحابه يلعنون واحدًا من المسلمين شرب الخمر
بعد تحريمها . فيزجرهم الرسول ﷺ وينهاهم قائلاً :
"لا تلعنوه ، فإنه يحب الله

ورسوله" !!

ولم لا يفعل ، وقد قال الله عنه :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ ..

وقال فيه :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ

أَنْفُسِكُمْ، عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ،

حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ، بِالْمُؤْمِنِينَ

دعم الحياة واحترام حقها فى الاستمرار والتقدم والإعمار ، ما
بلغ معشار ما تُفِيهُ كلمات الرسول هذه :

"إذا قامت الساعة ، وفى يد

أحدكم فَسِيلَةٌ، فليُغرسها!!"

إن الفسيلة من صغار النخل التى تُغرس فى الأرض
لتنمو فيما بعد نخلة باسقة لها طَلْع نَضِيد .. فأى نفع وأية
جدوى من غرسها إذا كان يوم البعث قد أطلَّ بأهواله وقام
الناس لرب العالمين ؟ ؟ ؟ !

إنه الالتزام المقدس تجاه العمل والحياة ، يحرص الرسول
على قيام المسلم به حتى والدنيا تلفظ آخر أنفاسها ..!!

* * *

ولا يقل نهوضه بالإنسان عن إبقائه على الحياة فالإنسان
مُصطفى الله لخلافته فى الأرض ، وموضع إكرامه وتكريمه
﴿ ولقد كَرَّمْنَا بنى آدم،
وحملناهم فى البر والبحر،
ورزقناهم من الطيبات، وفضلناهم
على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾

سورة الإسراء- الآية : ٧٠

رعوف رحيم ﴿ ٥٥ ٠٠

سورة التوبة - الآية : ١٢٨

وإنه ليقول :

"بينما بَغْيٌ تَسِيرُ إِذْ رَأَتْ كَلْبًا يَلْهَثُ
مِنَ الْعَطَشِ ، فَخَلَعَتْ مُوقَهَا وَأَذْلَتْهُ
فِي بَثْرٍ حَتَّى مَلَأَ مَاءً ، فَسَقَتْهُ ،
فَشَكَرَ اللَّهُ لَهَا ، وَغَفَرَ لَهَا ، وَأَدْخَلَهَا

الْجَنَّةَ" !!!

ليس شرطاً أن تكون هذه الكلمات اليانعات تصويراً
لحادث حدث وواقعة وقعت .. وحسبها أن تكون مثلاً رامزاً
لرحمة ربنا وحنانه وهيباته كما يفهمها الرسول ﷺ ، وكما
يُدرِك أبعادها الجلييلة التي تَطالُ كل أعراض الضعف الإنساني
وما ينتج من ذنوب وخطايا وأوزار !!

فالبغْيُ المتقلبة بين أحضان النكر والفاحشة يستوقفها
ظماً كلب يلهث ، ويتندى قلبها الكسير بعاطفة حانية ، فتشق
مُرطها نصفين وتربط به مُوقها أى نعلها ثم تلقيه فى غِيَابَةِ
البثر، حتى إذا امتلأ ماء جذبته فى رفق .. واللاهث الظمآن
لابث يتزقب ويهز ذيله فى سرور ودهشة .. وأخيراً تُدْنِي

البغى الماء فى فمه المرتجف ، فيشرب عللاً بعد نَهْل .. حتى
إذا رَوَى أَقبل عليها يمسح كفها وذراعها بلسانه تعبيراً عن
شكره وعرفانه .

ويفترض الرسول الكريم ﷺ أن الله يرقب المشهد من
هناك من فوق سماواته وعرشه المجيد .. ويسألنا : ما تظنون أن
الله صانع بهذا البغى ؟؟

لقد شكرها .. وغفر لها .. وأدخلها الجنة !!!..

* * *

ألاً صدق ربنا العظيم حين قال لرسوله صلى الله عليه
وسلم:

﴿ وما أرسلناك إلا رحمة

للعالمين ﴾

وصدق الرسول ﷺ حين قال عن نفسه :

"إنما أنا رحمة مُهْدَاة ..."

تصوروا رسولاً جاء ليغير العالم يُعْنَى فى نُبل عظيم

بالحيوان فى لحظات ذبحه ، فيقول :

"إذا ذُبَحْتُمْ ، فأحسنوا الذِّمَّةَ. وليُحَدِّ

أحدكم شفرتة .. وليُريح ذبيحته" !!

وإنه - عليه الصلاة والسلام - ليمر برجل يُوثق ذبيحته
بالحبال والسكين في يده ترمقها الذبيحة بنظرات حزينة
متفجعة، فينأى الرسول بوجهه وبصره ، ويأمر الرجل أن
يُوارى شَفْرته ويرحم الذبيحة من أن تشقى برؤيتها مهددة
متهتة...!!

* * *

والآن ، فلنرسل البصر متجهًا وناقمًا إلى التَّينِ
الروسى الذى يقترف فى "الشاشان" ومع شعبها المسلم كل
أنواع الإفك والقتل والحرق والإجرام ..
ولنرسل البصر إلى البوسنة والهرسك حيث يدمر الصرب
الملاعين كل شىء هناك - الإنسان ، والحيوان ، والدور،
والمساجد ، والمدن ، والقرى ..
وحيث يُجهزون فى وجبة واحدة على ثلاثة آلاف
مسلم حرقًا بالنار !!
ولم يكفهم هذا ، فراحوا يفعلون ما ينجل الشيطان من
فعله، فيَحْقِنُونَ أرحام المسلمين العفيفات المحصنات بنُطف
الكلاب !!

ويزعمون ومن وراءهم من المجرمين الكبار أنهم للسيد
المسيح أتباع وأشباع ..

والسيد المسيح يبصق عليهم ويلعنهم ويُنَادِيهِمْ :
"يا أولاد الأفاعي .."
"كيف تتكلمون بالصالحات
وأنتم فجرة" !!!

إننا إذ نتحدث عن رحمة الرسول صلى الله عليه وسلم
وتكريمه الإنسان فلا حق لنا في أن نقحم على الحديث أدنى
ذكر لأولاد الأفاعي .. القتلة والآبقين ، الذين يزكم تنهم
الأنوف ...

١٩٩٦ / ٥٢١٨	رقم الإيداع
ISBN 977 - 02 - 5732 - 6	الترقيم الدولي



خالد محمد خالد

هذا الرسول ﷺ

الذي نادى البشر بالأمس ، ويناديهم اليوم، وغداً،
وبعد غد ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .
فإلام دعا؟ ولمن انطلقت أنوار شخصيته ،
وأضواء دعوته، وحنان رحمته ؟ .

أجل إلام ينادى محمد ﷺ اليوم البشر
المفدوحين بالجهالة والقسوة والضلال،
والمبشرين بسوء المصير والمآل ؟ .

سنبصر وتبصرون ، ونسمع وتسمعون ،
وسيكون الخير كله من حظ الذين يبصرون
ببصائرهم قبل أبصارهم، ويسمعون بأفئدتهم قبل
أذانهم .

خالد محمد خالد

المقام
التفكير النوراني

د. ش. الشيخ ربحان - القمرة ت ٣٥٥٨٢١٥ ، ف ٣٥٤٦١٠٩